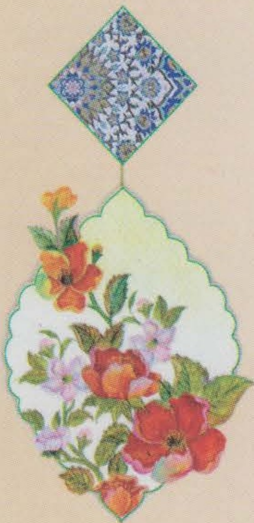
نظرة في رحاب

الإمام عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام

العلامة الشيخ محمّد تقي الجعفري



ترجمة:

علي فاضل سعدون

مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ رَسُول الله (صلّى الله عليه وَ آله):

اِنّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ: كِتَابَ الله، وَ عِتْرَتِي اَهْلَ بَيْتِي، مَا اِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا اَبَدًا، وَاِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتّىٰ يرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ.

(صحيح مسلم، ج٧، ص١٢٢، سنن الدارمي، ج٢، ص٤٣٢، مسند احمد، ج٣، ص١٤، ١٧، ٢٦، ٥٩، ج٤، ص٣٦٦، ٣٧١، ج٥، ص ١٨٢، مستدرك الحاكم، ج٣، ص١٠٩، ١٤٨، ٥٣٣، وغيرها من المصادر)

نظرة في رحاب

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

نظرة في رحاب
الإمام عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام

العلامة الشيخ محمّد تقي الجعفري

ترجمة:

علي فاضل سعدون

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

سرشناسه : جعفری تبریزی، محمّد تقی، ۱۳۰۲، ۱۳۷۷
عنوان قراردادی : نگاهی به علی(ع). عربی
عنوان و پدیدآور : نظرة فی رحاب الامام علی بن ابی طالب علیه السلام / محمد تقی الجعفری؛ ترجمه علی فاضل سعدون
مشخصات نشر : قم: المجمع العالمی لاهل البیت(ع)، ۱۳۸۵.
مشخصات ظاهری : ۱٦٥ ص
شابک : 964-529-070-8
یادداشت : فیپا
موضوع :علی بن ابی طالب(ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت ـ ٤۰ ق.
شناسه افزوده : سعدون، علی فاضل، مترجم
شناسه افزوده : مجمع جهانی اهل بیت(ع).
رده بندی کنگره : ۱۳۸٥ ۸۰٤۳ن ۷٥ج / ۳٥ / BP ۳۷
رده بندی دیویی :۲۹۷/۹٥۱
شماره کتابخانه ملی : ۲۸۱٦۲ ـ ۸٥ م



■ نظرة في رحاب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام
المؤلف: العلامة الشيخ محمد تقي الجعفري
المترجم: علي فاضل سعدون
التصحيح: أحمد فاضل
المراجعة النهائية: شاكر محمود الأحمد
الإعداد: المعاونية الثقافية، دائرة الترجمة
الناشر: المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام
الطبعة: الأولى
المطبعة:
تاريخ النشر: ۱٤۲۷ هـ / ۲۰۰٦ م
عدد النسخ: ۳۰۰۰ نسخة
حقوق النشر محفوظة للناشر
ISBN:964-529-070-8
info@ahl-ul-bayt.org
www.ahl-ul-bayt.org

كلمة المجمع:

إنّ تراث أهل البيت عليهم السلام الذي اختزنته مدرستهم، وحفظه من الضياع أتباعُهم، يعبّر عن مدرسة جامعة لشتى فروع المعرفة الإسلاميّة. وقد استطاعت هذه المدرسة أن تربّي النفوس المستعدّة للاغتراف من هذا المعين، وتقدّم للأمّة الإسلاميّة كبار العلماء المحتذين لخطى أهل البيت عليهم السلام الرساليّة، مستوعبين إثارات وأسئلة شتى المذاهب والاتجاهات الفكرية من داخل الحاضرة الإسلاميّة وخارجها، مقدّمين لها أمتن الأجوبة والحلول على مدى القرون المتتالية.

وقد بادر المجمعُ العالمي لأهل البيت عليهم السلام ـ منطلقاً من مسؤوليّاته التي أخذها على عاتقه ـ للدفاع عن حريم الرسالة وحقائقها التي ضبّب عليها أربابُ الفرق والمذاهب وأصحابُ الاتجاهات المناوئة للإسلام، مقتفياً خطى أهل البيت عليهم السلام وأتباعَ مدرستهم الرشيدة التي حرصت في الردّ على التحدّيات المستمرّة، وحاولت أن تبقى على الدوام في خطّ المواجهة وبالمستوى المطلوب في كلّ عصر.

إن التجارب التي تختزنها كتبُ علماءِ مدرسةِ أهلِ البيتِ عليهم السلام في هذا

المضمار فريدةٌ في نوعها؛ لأنّها ذات رصيدٍ علميٍّ يحتكم إلى العقل والبرهان ويتجنّبُ الهوى والتعصبَ المذمومَ، ويخاطبُ العلماء والمفكرين من ذوي الاختصاصِ خطاباً يستسيغه العقل وتتقبّله الفطرةُ السليمةُ.

وقد حاول المجمعُ العالمي لأهل البيت عليهم السلام أن يقدّمَ لطلاب الحقيقة مرحلةً جديدةً من هذه التجارب الغنيّة من خلال مجموعةٍ من البحوث والمؤلّفات التي يقوم بتصنيفها مؤلفون معاصرون من المنتمين لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، أو من الذين أنعم الله عليهم بالالتحاق بهذه المدرسة الشريفة، فضلاً عن قيام المجمع بنشرِ وتحقيق ما يُتوخّى فيه الفائدة من مؤلفات قدامى علماء الشيعة الأعلام أيضاً، لتكون هذه المؤلّفات منهلاً عذباً للنفوس الطالبة للحقّ، كي تنفتح على الحقائق التي تقدّمها مدرسةُ أهل البيت عليهم السلام الرساليّة للعالم أجمع، في عصرٍ تتكاملُ فيه العقول وتتواصلُ النفوس والأرواح بشكلٍ سريعٍ وفريدٍ.

نرجو من القرّاء الكرام أن لا يبخلوا علينا بآرائهم ومقترحاتهم القيّمة وانتقاداتهم البنّاءة في هذا المجال. كما ندعو كافّة المراكز المعنيّة والعلماء والمؤلفين والمترجمين للتعاون معنا في نشر الثقافة الإسلاميّة المحمديّة الأصيلة.

سائلين الله تعالى أن يتقبل منّا هذا القليل ويوفقنا للمزيد في ظلّ عنايته الخاصة ورعاية خليفته في الأرض الإمام المهدي (عجّل الله تعالى فرجه الشريف).

ونتقدّم بالشكر الجزيل لسماحة العلامة المرحوم الشيخ **محمد تقي الجعفري** رحمه الله لتأليفه هذا الكتاب. كما ونشكر سماحة الشيخ **علي فاضل سعدون الجادري** لنقله هذا الكتاب من الفارسية إلى اللغة العربية، وكذلك

جميع زملائنا الذين ساهموا في إنجاز هذا الأثر، بالأخص العاملين في قسم الترجمة المثابرين في أداء واجبهم.

المعاونية الثقافيّة
المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

نبذة عن حياة الشيخ محمد تقي الجعفري

محمد تقي الجعفري عنوان خالد لرجل هيمن على القلوب والعقول دون إطراء مصطنع أو كلمات منمّقة. فهو لم يعشق العناوين والألقاب، بل انتهج سبيل سيّده أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يكره ذلك.

ومن أجل التعرّف على شخصية هذا العالم الفذّ لابدّ من إطلالة على سيرته الذاتية لنكشف عن هذه السيرة المليئة بالفخر والعزّ والإباء.

يقول الشيخ محمد تقي الجعفري رحمه الله: «كانت ولادتي بمدينة تبريز في شهر مرداد[1] سنة ١٣٠٤ هـ ش [١٩٢٥ميلادي] في عائلة مستضعفة»[2] و«كان والدي من أهل الصدق والنَقاء... ولا أتذكر شخصياً أنه كَذب أمامي يو ما[3]... رغم كونه إنساناً أُميّاً لم يدرس أو يتعلم، ولكنه كان تقياً ومهذّباً وصادق ويعشق العمل... وكان يمتهن الخبازة...».[4]

(١) أي الشهر الخامس من السنة الهجرية الشمسية.

(٢) مجلة الحوزة: العدد ٤ . (فارسية)

(٣) فصليّة قبسات: العدد ٢. (فارسية)

(٤) مفاخر آذربيجان: ٢/ ٥٧٧. (فارسي)

وكان للأُمّ الدور البارز في صياغة هذه الشخصية الفذّة والتي يقول هو عنها: «كانت أُمّي علويّة ومن عائلة مرموقة، وكانت على خلاف والدي متعلّمة،... وهي التي علّمتني قراءةَ القرآن».[1]

على أعتاب المدرسة:

في السادسة من عمره التحق بالمدرسة الابتدائية، ودخل الصف الثالث مباشرة حيثُ ساهمت أمّه في تعليمه، مما جعل الأساتذة يعتقدون بأنّه يستحق أن يجتاز الصفين الأوّل والثاني، واستمر في الدراسة إلى السادس الابتدائي ليتركها نظراً للظروف المادية الصعبة التي عاشها... ليعود بعد فترة إلى الدراسة دون أن يترك العمل ولتلك الأيام ذكريات كثيرة، يتلذذ بها رغم قساوتها. يقول رحمه الله: «كان أكبر همّنا أن نتعلم مايقوله المعلم، ولذلك كنّا نحسّ بأننا لو لم نتعلّم الدرس فإن ذلك يعني أن الدنيا ستنهار! وقد كانت درجاتي عالية خصوصاً في درس الرياضيات...»[2].

ومن ذكرياته في المرحلة الابتدائية والتي تدل على مدى احترامه لأساتذته [حتى بعد وصوله الى مراحل متقدّمة] مايرويه هو رحمه الله: «جاءني مدير مدرستنا يوماً [فنظر إلى خطّي] وكان رديئاً، فقال: جعفري، ما هذا الخط...؟ فقلت: إنّه خط جميل، فقال: بما أنك أقررت فاخرج من الصف، وأخذ عصاً وضربني، وبقيت يدي تؤلمني مدة شهر كامل... ومضت سنين طويلة وكانت لي محاضرة في جامعة مشهد، وحينما وقفت خلف المنصّة

(١) آفاق مرزبانى (آفاق حماية الثغور):٢١- ٢٣. (فارسي)

(٢) المصدر السابق: ٢٣-٢٤.

رأيت شخصاً ظننت أنّي أعرفه، فأمعنت النظر وإذا به هو [مدير المدرسة]، وعندما عرفته لم أتمكن من التحدث أكثر من دقيقتين. وبعد أن انتهت محاضرتي جاءني فقال: هل تعرفني؟ فقلت: نعم أنت الذي ضربتني بالعصا، فطأطأ رأسه ليعتذر، فقلت: ياليتك ضربتني أكثر بتلك العصا، فقال: ولماذا؟ قلت: ليتحسّن خطّي، فقال: وهل تحسّن خطك اليوم؟ فقلت: يمكن قراءته ...»[1]

رؤيا صادقة:

«في أوائل أيام دراستي في الابتدائية رأيت في المنام يداً تُقدّم لي إناءً من اللبن، دون أن أشاهد وجه من كان يقدّم لي ذلك اللبن، فسألت عن صاحب اليد فقيل لي: يدُ أمير المؤمنين عليه السلام»[2]

على أعتاب الحوزة العلمية:

بعد أن أتمّ الشيخ دروسه الابتدائية، التحق بالحوزة العلمية [إلى جانب دراسته الأكاديمية]، ولكنه وبعد فترة وجيزة ترك المدرسة الأكاديمية نتيجة الحالة المادية الصعبة التي كان يعيشها، يقول رحمه الله: «لم يكن طعامنا إلّا الخبز والحليب الرائب،... وقد عانيت الكثير من المشاكل المادية وكانت حياتي عسيرة، لكنّي كنت أدرس بجد واجتهاد.إلّا أني اضطررت بعد فترة من الزمن إلى العمل لتأمين احتياجاتي، ولذلك تركت

(١) المصدر السابق: ٢٤- ٢٥.

(٢) المصدر السابق: ٢٣- ٢٤.

المدرسة[فترة من الزمن]».[1]

ولكن المشيئة الإلهية كانت ترعى هذا الصبي، ففي ليلة من الليالي وبينما كان يغطُّ في نوم عميق انطلق لسانه ليُرتّل أُنشودة شعرية، وكان الأب [لحسن الحظّ] يستمع اليه. وفي اليوم الثاني سأله الأب عمّا كان يحلم به في ليلة الأمس؟ فقال: «كنت حزيناً لأنني تركت المدرسة» فسمح له الأبُ هوَ وأخاه بالالتحاق بمدرسة الطالبيّة ليدرس الصرف والنحو هناك.[2] وساهمت تلك المدرسة والتي امتازت بوجود أُستاذ قدير في الأدب العربي في إعداد شخصيّته بشكل ممتاز.[3]

وكان الشيخ يعشق الأدب العربي كما يقول هو رحمه الله: «في أواخر الحرب العالمية الثانية بدأتُ أميل إلى العلوم الحوزوية، وكنت مغرما بدرس الأدب العربي الّذي يُدرسُ عادةً في بداية المراحل الدراسيّة الحوزوية.[4] فدرست هناك السيوطي والمغني وكتباً أُخرى برغبة شديدة. فكنت أحفظ عن ظهر قلبٍ الأشعار التي أوردها السيوطي، وأقرأُها وكأنّها محفوظة [مدرسية]».[5]

وفي تلك البرهة بالذات بدأ الشيخ يتشوّق إلى مباحث المعرفة،

---

(١) المصدر السابق: ٢٥- ٢٦.

(٢) مفاخر آذربيجان: ٢/ ٧٥٨- ٧٥٩. (فارسي)

(٣) ماهنامه رشد جوان (مجلة نضج الشباب): العدد ١١٧ ، ص ٦. (فارسية)

(٤) فصلية قبسات: صيف السنة الثانية ، ص ٣. (فارسية)

(٥) در محضر بزر گان (في محضر العظماء): ٥٨- ٥٩. (فارسي)

يقول رحمه الله: «كنت حتّى عندما أقرأ السيوطيّ أجد نفسي ميّالاً وشغفاً للتعرف على العالم والمباحث الفلسفية ومباحث الوجود. في حين كُنت أُدرك أنّها رغبة ذاتية مستقلة، لم يكن لأحدٍ دورٌ في انقداحها في ذهني»[١]

وداعاً يا تبريز:

لم تعد تبريز ومنتدياتها العلمية ومكتباتها تروي غليل الشيخ الجعفري اليافع فقرّر تركها[٢].

فتوجه الى طهران لدراسة العلوم الدينية، واستقرّ في مدرسة«فيلسوف»، فدرس هناك بقية دروس السطح، وتَتَلمذَ في الفلسفة والمعقولات على يد الميرزا مهدي الأشتياني رحمه الله الذي كان يُدرّس في مدرسة «مروي». ودرس ما تبقّى من الرسائل والكفاية عند الشيخ محمد رضا التنكابني (والد الخطيب المعروف الشيخ الفلسفي)، وامتدت فترة إقامته في طهران من سنة ١٣٥٩ إلى ١٣٦٢ هـ، وهي الفترة التي أكمل فيها دراسة مرحلة السطوح، ليتوجّه إلى مدينة قم المقدسة ثاني أكبر الحوزات الدينية آنذاك.

قم المقدسة؛ طموح وآمال:

تتلمذ العلامة الجعفري رحمه الله في مدينة قم المقدسة على أساتذةٍ من أمثال: الشيخ عبد الصمد الخوئي رحمه الله والشهيد الصدوقي رحمه الله والشيخ مهدي المازندراني والشيخ محمد تقي زركر الذي درس عنده المسائل

---

(١) فصليّة قبسات: صيف السنة الثانية، ص ٦. (فارسية)

(٢)- ميراث ماندگار(الآثار الباقية): ٩٩/١. (فارسي)

العرفانية كما يذكر رحمه الله[١].

وقد عانى الشيخ في أيام دراسته الحوزويّة الكثير من الصعوبات والفقر المادي المدقع، إذ لم يكن يمتلك في بعض الأحيان حتّى قوت يومه، ولكنّ كل ذلك لم يثنِ عزمه أو يحول دون بلوغه أُمنيته، كيف وهناك الدروس التي تسدُّ حاجاته الروحية وهو الذي يؤمن بالروح بما يتجاوز حدود الجسد؟ وتزداد حالة الشغف بالدرس وتحمُّل الصعاب لديه حينما يكون أُستاذه الإمام الخميني قدس سره. يقول رحمه الله: «...لقد كان درس الأخلاق الذي يلقيه الشخص المحبَّب إليّ [الإمام الخميني]، في يومي الخميس والجمعة هو في الحقيقة درساً في المعارف والسَير والسلوك. ولم يكن [درساً] أخلاقياً جامداً... وكان لهذا الدرس تأثير مهم في بناء شخصيتي الفكرية والروحية، ومن ثم الدروس الأُخرى التي إستلهمتُها من هذا الأُستاذ الرباني... وأرى نفسي مَديناً له ... فلقد كان في الحقيقة الروح القدسيّة الالهية[٢]. ويقول في موضع آخر: «لقد كانت تقاسيم وجه الإمام الخميني تُشير إلى أنّه يتمتّع بمواهب [فذّة] لايمتلكها الآخرون»[٣].

العودة إلى تبريز:

لم تَدُم فترة إقامة العلامة في قم طويلاً حتى جاءته رسالة من أخيه، يخبره بأن والدته قد لازمت فراش المرض، وكان عليه أن يذهب للقائها ...

---

(١)- آفاق مرزبانى(آفاق حماية الثغور): ٢٨.

(٢)- مجموعه آثار (مجموعة مؤلفات الشهيد مطهرى): ١ /٤٤١. (فارسي)

(٣)- آفاق مرزبانى(آفاق حماية الثغور): ٢٩- ٢٩.

ولكن المؤسف في الأمر أنّ الرسالة وصلت في وقت فارقت أُمُّه الحياة[1].

وعندما وصل تبريز واجه حقيقة الأمر بأسى، ولكن مجيئه إلى تبريز ساهم في أن يلتقي مجتهدا كبيرا هو الميرزا فتّاح الشهيدي رحمه الله فارتبط به وتتلمذ على يديه، وقدساهم الميرزا في انتقال العلامة الجعفري إلى مدينة النجف الأشرف.

في جوار أمير المؤمنين عليه السلام:

وصل الشيخ مدينة النجف الأشرف في حدود سنة ١٣٦٥ هـ- ق، وقد تحدث رحمه الله عنها قائلاً: «كانت النجف آنذاك متوهجة وزاخرة، فقد كانت تتمتع بالكثير من الطلاب المثابرين والأساتذة العظماء الذين يُدرّسون في مختلف المجالات[2]... لقد كانت النجف مثمرة في تلك الفترة»[3].

وفي النجف الأشرف استقر في مدرسة «بادكوبا»، ثم انتقل إلى مدرسة «الصدر» بعد ثمانية أشهر، وكانت مدرسة «الصدر» على ما يذكر رحمه الله، تمتاز بالأصالة والروحانيّة. يقول عنها: «لقد كان أغلب ساكنيها- باستثناء شخص أو شخصين- من المجتهدين، وكانت حالاتهم الروحية تبدأ من منتصف الليل...، لقد خرّجت هذه المدرسة طُلاباً كباراً...»[4].

كان هذا الإطراء والمديح في وقت يعاني فيه الشيخ الجعفري رحمه الله من

---

(١)- ماهنامه رشد جوان: (مجلة نضج الشباب)، العدد ١١٧.

(٢)- مفاخر آذربايجان: ٢/ ٧٦٢.

(٣) مجلة الحوزة: السنة الرابعة العدد الأوّل، ص ١٩.

(٤) آفاق مرزباني(آفاق حماية الثغور): ٣٠.

ظروفٍ ماديةٍ صعبةٍ ومريرة.

الاغتراف من معين النجف الأشرف:

يقول عن دروسه في النجف وأساتذته:«لقد وصلت النجف بعد وفاة اثنين من أعاظمها، وهما المرحوم الشيخ محمد حسين الإصفهاني رحمه الله والشيخ آقاضياء رحمه الله [العراقي] ... فبدأت دراسة الجزء الثاني من الكفاية مرة أُخرى، ثم حضرت درس البحث الخارج، وكان أوّل أساتذتي في البحث الخارج هو الشيخ كاظم الشيرازي .... في نفس الوقت الذي كنت أحضر درس الفقه والأُصول عند آية الله الخوئي.

وتتلمذت على الميرزا حسن اليزدي في الأُصول، حيث كان يبحث في كتاب«المقالات» لآقا ضياء [العراقي]، وكنت أجد لديّ الرغبة في الاطّلاع على آرائه لما فيها من دقّة [علميّة] ....، وحضرت درس آية الله السيد محمود الشاهرودي الذي كان يُدرّس«المكاسب المحرمة» وحضرت كذلك بعض«الخيارات» عنده. وتتلمذت عند آية الله السيد الحكيم الذي كان يدرّس«العروة»- نفس المستمسك الذي كتبه- سنة ونصف تقريباً. وفي الأشهر المباركة كنت أحضر دروس العطلة، فلقد حضرت عند السيد عبد الهادي الشيرازي«قاعدة الفراغ» و«التجاوز» خلال شهر واحد. وحضرت عنده جلسته التي درّس فيها «الحاشية على العروة».

وكانت إحدى أهم أيامي [في الحوزة] السنوات السبع التي عشتها في محضره. وكان حضوري عند آية الله السيد الخوئي قد امتدّ إحدى عشرة سنة، فكنت قد حضرت لديه دورتين [أُصوليتين] لأن دورته الأُصولية

تستمرّ مدة ست سنوات تقريباً.

كما تتلمذت عند آية الله السيد محمد هادي الميلاني في بعض دروس الأصول وحضرت درس الفقه لديه أيضاً، وكان يُدرّس كتاب التجارة، وكانت دراستي للفقه والأصول قد استمرت بشكل جيد في النجف»[1].

وفي النجف الأشرف ورغم كثرة الدروس الفقهية والأصوليّة والأخلاقية والعرفانية، إلّا أنّ شيخنا الجعفري رحمه الله - كان كما ذكرنا عاشقاً للمعارف الكونية، وكانت النجف آنذاك تُلبّي طموحاته، فقد كانت الكتب الغربية تصل إليها من مصر، وكان الشيخ يسهب في مطالعتها. وقد أجرى مقارنة بين الفلسفة الشرقية والغربية، وكان يقرأ في بعض الأحيان تراجم مختلفة كي يكون دقيقاً في التعرّف على الأفكار، واستمرّ الأمر مدة سنة ونصف دأب خلالها على مطالعة تلك الكتب، بحيث لم يخلد للنوم إلّا ساعتين خلال اليوم والليلة.[2]

التأليف والتدريس في النجف الأشرف:

بعد حضور دروس الخارج عند الأعلام المذكورين، بدأ العلامة الجعفري رحمه الله في تدريس البحث الخارج وفقاً لكتاب«المكاسب»، ثم درّس «الفلسفة والمعارف»، وهو الدرس الذي اقترح عليه الميرزا عبد الهادي الشيرازي تدريسه...

---

(١) مجلة الحوزة: العدد الأول ص ١٩-٢٠.

(٢) آفاق مرزباني(آفاق حماية الثغور):٣٨.

وقد كتب حواشي على بعض أبواب الفقه... وألّف كتاب «الأمر بين الأمرين، وعلاقة الإنسان والعالم» في النجف الأشرف.

إجازة الاجتهاد:

بعد ثلاث سنين من استقرار الشيخ في النجف الأشرف منحه المرحوم الشيرازي إجازه الاجتهاد كما يروي هو ذلك[١].

العودة إلى إيران:

بعد أن أمضى العلامة الجعفري مدة إحدى عشرة سنة في مدينة النجف الأشرف، ونال درجات رفيعة في العلوم الفقهية والأصولية والفلسفية، عاد إلى بلده إيران. وفي طريقه التقى المرجع الكبير السيد البروجردي في قم، الذي طلب توفير المستلزمات لإقامة العلامة الجعفري في قم، غير أنّ العلامة الجعفري رحمه الله كان يودُّ الذهاب إلى مدينة مشهد المقدسة.

إجازة اجتهادٍ أُخرى:

وفي مدينة مشهد المقدسة حضر جلسات استفتاء المرحوم آية الله السيد الميلاني، واشترك في أحد دروسه العامة. وفي هذه المدينة منحه السيد الميلاني إجازة اجتهاد مكتوبة، وكان عمره آنذاك ثمانية وعشرين سنة. يقول هو في التعليق على هذه الإجازة: «لقد كنت أعتبر نفسي أقلّ شأناً [من ذلك] ولم أكن أعلم بهذه المحاولة»[٢].

---

(١) المصدر السابق : ٤٣.

(٢) المصدر السابق: ٤٣.

ولكنّ هذه المدينة المقدسة لم تكن المكان الذي يستقر فيه الشيخ، فالمرض دبّ في جسده بحيث تركه مسجّى على فراش الموت. وشاءت الأقدار الإلهية أن يُعافى الشيخ من مرض الموت، لينتقل إلى مدينة طهران[١] ويعود بعد ذلك إلى النجف الأشرف، التي تركها منذ سنتين أو ثلاث سنوات.

وفي النجف حلّ ضيفاً على الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره وبقي في بيته مدة شهرين[٢] وصمم البقاء في النجف إلى الأبد، لأنّه كان يؤمن بأن النجف تختلف عن أي مكان. يقول في ذلك: «من لم يسكن النجف لايعرف ماذا أقصد... »[٣].

وفي النجف التقى بعض أساتذته، وعندما علم أنّ السيد عبد الهادي الشيرازي رحمه الله مريض التقى به وهو على فراش المرض، وأخبره أنّه ينوي البقاء في النجف، فقال له السيد الشيرازي: «إنّ لك مجالاً في النجف، لكن لا أعلم عاقبته».

وكان للسيد الخوئي رحمه الله رأيٌ مشابه لرأي السيد الشيرازي رحمه الله دون أن

---

(١) فيلسوف الشرق: ٦٥-٦٦. (فارسي)

(٢) كان العلامة الجعفري يعتز كثيراً بالسيد الشهيد الصدر رحمه الله ويؤمن بكفاءاته العلمية، وقد ذكر في لقاء إحدى لقاءاته بحق الشهيد الصدر ما نصّه: «لقد كان الشهيد الصدر ذكياً جداً، ويشبه ابن سينا في عدم حاجته للأُستاذ، فقد كان يقرأ هو ويدرك المفاهيم دون حاجةٍ للمدرس، لقد كان يتمتع بعقلية وذوق فطريّين». (جاودان أنديشه(خالد الفكر):٤١١).

(٣) آفاق مرزباني(آفاق حماية الثغور) : ٤٠.

يسمعه منه، ولذلك استقر رأي العلامة على البقاء، لكنه ارتأى أن يذهب إلى كربلاء لزيارة الإمام الحسين عليه السلام، ويستخير الله هناك.

يقول العلامة الجعفري رحمه الله: «دخلت أثناء أذان الصبح إلى حرم الإمام أبي عبد الله عليه السلام وحدثته بمسألتي وطلبت منه أن يدعو الله ليبيّن الأمر لي من خلال استخارة أستخيرها، فكانت الاية هي قوله تعالى ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[1]، فعرفت أن الله تعالى جعل عاقبة أمري في إيران، ولذلك رجعت إلى هناك»[2].

الاستقرار في طهران:

بعد عودته من مدينة النجف استقرّ الشيخ في مدينة طهران، وبدأ يكتب ويؤلف ويحاضر ويدرّس. وقد درّس في مدرسة المروي «المكاسب والكفاية»، ودرّس البحث الخارج معتمداً على كتاب العروة[3]، ودرّس الأسفار والمنظومة إضافةً إلى درسٍ لعامة الناس.

التواضع والأخلاق في حياة الشيخ الجعفري:

امتاز العلامة الجعفري رحمه الله بتواضع قلّ نظيره، وبأخلاق لم تعهد إلّا من العظماء. فقد كان يعيش في منطقة فقيرة في جنوب طهران، وكان بيته

---

(١) مريم: ٤٩ / ٥٠.

(٢) آفاق مرزباني(آفاق حماية الثغور):٤١.

(٣) المصدر السابق:٤٤.

متواضعاً وبسيطاً، لكنه كان مهوى قلوب الباحثين والمحققين. ولعلّ الحكايات التي تنقل عن هذا الرجل من الكثرة بحيث لايمكن نقلها جميعاً لكثرتها، ولكن نشير الى بعضها:

عندما ناظر العلامة الجعفري الفيلسوف الغربي برتراند راسل[١] في حدود سنة ١٩٦٣م، عمدت صحيفة« اطّلاعات» على نشر تلك المناظرة، ورأت أن ترفقها بصور لكلّ منهما، ولذلك اتصلت الصحيفة بالشيخ وطلبت منه أن يرسل أحد المقربين لإيصال الصور إليهم.

ولكن الشيخ ذهب بنفسه حيث كان لديه شغل على مقربة من بناية الصحيفة، وعندما أراد الدخول منعه الحرس الذين كانوا من عناصر الأمن- فلقد كان الشيخ بسيط اللباس- وبعد فترة من التأخير المتعمّد فُسح له المجال في الدخول على رئيس التحرير، فسأله باستخفاف ماذا تريد؟ فقال: جئت بصور محمد تقي الجعفري! ففرح رئيس التحرير لوصول الصور، ولكنه قال: أعطني الصور وتفضل بالخروج، وعندما كان الشيخ يهمّ بالخروج أمعن رئيس التحرير في الصور، وسأل متعجباً: أهذا أنت ياجعفري؟ فأجاب: نعم، فخجل رئيس التحرير من فعلته، وأحسن ضيافة الشيخ[٢].

---

(١) برتراند راسل (١٨٧٢- ١٩٧٠): رياضي وفيلسوف إنكليزي. يعتبر هو وألفرد هوايتهد واضعي علم المنطق الرمزي أو الرياضي. من آثاره: (الدين والعلم) ، و (تاريخ الفلسفة الغربية) و (السلطة والفرد).(موسوعة المورد).

(٢) فروغ دانايي (شعاع المعرفة):٦-٧. (فارسي)

ومن زهده: امتناعه عن أخذ مالٍ من سهم الإمام، وعدم الاقتراض من أحدٍ طوال حياته. كما أنّه امتنع عن استلام أي مبلغٍ مقابل إلقائه محاضرة ما عامةً كانت أم تلفزيونية أم في مؤتمر. وكانت تصله أموال كثيرة إلّا انّه كان يُقسّمها في فترة لا تزيد على الشهر من وصولها اليه. هذا مع ما كان يعيشه من ظروف صعبة وعسيرة وكان حق التأليف مصدره المعاشي الوحيد[1].

مؤلّفاته:

لقد ألّف العلامة الجعفري الكثير من الكتب والمقالات في أبواب عديدة، منها:

أ- الفقه:

١- رسالة في طهارة أهل الكتاب. ٢- ذبائح أهل الكتاب. ٣- عدم انحصار الزكاة في الموارد التسعة. ٤- قاعدة لاضرر ولاضرار. ٥- حلّيّة وحرمة لحوم أنواع الحيوانات. ٦- حقوق الحيوان في الفقه الإسلامي. ٧- جزاء السرقة في الإسلام. ٨- حقوق الإنسان العالمية في الإسلام والغرب. و...

ب- الفلسفة:

١- الجبر والاختيار. ٢- مجموعة مقالات. ٣- العلاقة بين الإنسان والعالم. ٤- مُثُل الحياة والحياة المُثلى. ٥- نقد نظريات دافيد هيوم في

---

(١) فيلسوف الشرق:١٤٤. (فارسي)

أربعة مواضيع فلسفية. ٦- بحث ونقد مختارات من أفكار راسل. ٧- الجمال والفنّ من منظار إسلامي. ٨- فلسفة الدين. ٩- تحقيق في فلسفة العلم. ١٠- تعاون الدين والعلم. ١١- الأمر بين الأمرين. ١٣- نهاية الإدراك الواقعي بين الفلسفة القديمة والحديثة و.....

ج – العرفان:

١- العرفان الإسلامي. ٢- دعاء الإمام الحسين عليه السلام في صحراء عرفة. ٣- تفسير ونقد وتحليل المثنوي[للمولوي]. ٤- الإمام علي عليه السلام والعرفان و....

د- علم النفس:

١- هل الحرب خصلة في وجود الإنسان؟ ٢- الوجدان.

هـ- العلوم الإسلامية:

١- ترجمة وتفسير نهج البلاغة (٢٧) مجلداً. ٢- الإنسان من منظار القرآن. ٣- المبدأ الأعلى. ٤- الإمام الحسين عليه السلام شهيد الثقافة الإنسانية الرائدة. ٥- العلم من منظار الإمام علي عليه السلام. ٦- العلم والدين في حياة المعقول. ٧- الأخلاق والمذهب. ٨- المعرفة من منظار علمي وقرآني.و...

إنّ الكتب المذكورة دَوّن أغلبها باللغة الفارسية، وقسم قليل منها باللغة العربية، وقد تُرجم بعضها إلى الإنجليزية والعربية والروسية.

وللشيخ مناقشات ومراسلات مع مجموعة من المفكرين في قضايا علمية تجاوزت الخمسين، وقد جمعت تلك البحوث في مجلّدين أطلق عليها البحث في الأفكار.

رحيل العارف:

وبعد عمرٍ زاخرٍ بالعلم والمعرفة ودّع العلامة الجعفري الحياة إثر مرض الَمّ به، وكانت وفاته في ١٣٧٧/٨/٢٥هـ ش [١٩٩٨/١١/١٦م].

والكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ ترجمة لمجموعة مقالات حول السياسة والجهاد من منظار الإمام علي عليه السلام، والإمام علي عليه السلام ونهج البلاغة، والإمام علي عليه السلام والعرفان الإيجابي، والإمام علي عليه السلام وحقيقة الموت، وقد جمعت تلك المقالات في كتاب أُطلق عليه بالفارسية «نگاهى به علي»، وقد تمّت ترجمته نظراً لما يمتاز به من رؤى علمية دقيقة، فسلام على الجعفري يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حياً.

المترجم[1]

---

(١) لقد استندت في هذه النبذة من حياة العلامة الشيخ محمد تقي الجعفري رحمه الله على كتاب خالد الفكر (جاودان انديشه) للمؤلف كريم فيضي تبريزي، والموقع الالكتروني للعلامة الجعفري رحمه الله

المنهجية السياسية عند الإمام علي عليه السلام

تقسيم الحوادث التأريخية

تنقسم عملية تحليل ودراسة الحوادث التأريخية إلى قسمين أساسيين:

أ- تحليل ودراسة قسم من الحوادث التي لا أثر ولاقيمة لها سوى أنها توضّح للإنسان حوادث شخصية، ولذلك لا نجد لها أثراً على [وعي] المجتمعات، صائبةً كانت أم خاطئة.

فلو فرضنا أننا وقعنا في خطأ عند تشخيصنا لمن كان يسكن إلى جوار نابليون[1]، كما لو افترضنا بأن قبّعة جاره كانت زرقاء في حين كانت بُنّيّة اللون، فهذا التشخيص وإن كان خاطئاً إلّا أنّه لايؤثر على معرفتنا الحقيقية بالنسبة لشخصية نابليون، والذي لانقصد من معرفتنا له إلّا التعرف على مكانته الاجتماعية وحسب.

فسواء كان لنابليون جار أم لا، أو إنه كان يسكن إلى الجانب الأيمن

---

(١) نابليون بونابرت (١٧٦٩- ١٨٢١): إمبراطور فرنسا... غزا مصر، وحاول احتلال روسيا ولكنه ارتد عنها خائباً. تنازل عن العرش (عام ١٨١٤م)، فنفي إلى جزيرة ألبا. وقد حاول استعادة عرشه ، ولكنه هزم هزيمة حاسمة في واترلو (عام ١٨١٥م) فنفاه الإنجليز إلى جزيرة سانت هيلانة. (موسوعة المورد).

من بيته، أو كان يضع على رأسه قبعة زرقاء أو بنّيّة، فهذه أُمور لاترتبط ثمة ارتباط بشخصية نابليون. وقد تكون جملة من الحوادث الجزئية في حياة نابليون الشخصية من هذا القبيل، أي أنّها لاتؤثر من قريب أو بعيد على تكوينة شخصيّته.

ولذلك فلو اخطأنا في عمليّة التعرف على هذه الحوادث وتحليلها- عمداً كان أم سهواً- وبعبارةٍ أوضح: لو تلاعبنا حسب رغباتنا الشخصية بتلك الحوادث فإنّ ذلك لايضرّ بالهدف الأصلي لدراستنا وتحليلنا بأي شكل من الأشكال.

لأنّنا حتى وإن تعرّفنا عليها فلايمكننا أن نستفيد منها في تحليل شخصيّة نابليون وارتباطه بالمجتمع.

ب- الحوادث المهمة والمؤثرة التي يمكن أن يتوقّف عليها مآل ومستقبل مجتمعٍ ما، فلا يمكن في مثل هذه الحالة أن نبحث هذه الأمور من دون أن نحقق في مكوناتها، هذا بغضّ النظر عن أن نتلاعب بحقيقة هذه الحوادث المهمة والمؤثرة حسب ما تمليه ميولنا وأهواؤنا النفسية، وذلك من أجل إرضاء تلك النوازع والأهواء الباطلة.

فعلى سبيل المثال: أنّ أهم الحوادث التي عاشتها البشرية والتي ترتبط بمصير أغلب المجتمعات البشرية هي سيرة وسلوك الأنبياء عليهم السلام، فأي خطأٍ من هذا القبيل يُعدّ خطأً فادحاً لايُحدُّ بحدود الشؤون الفردية التي عاشوها، بل سيحرف المنهج القويم لملايين البشر وسيُوقِعُهُم في مزالق الانحراف.

وبعبارة أوضح: إنّ ظاهرة الأديان تلعب دوراً بالغ الأهمية في المجتمعات،

سواء أذعنّا لذلك أم لا، وعليه فإنّ أيّ خطأٍ وتلاعب في مجريات الحقائق أو في الافتراء على شخصية قادة تلك الأديان سيكون في غاية الانحراف، ولايمكن الحدّ من الضرر الناتج عنه بشكل من الأشكال.

فلنفترض أنّ شخصاً زعم تحت تأثير النوازع الشخصية والأغراض النفسيّة: أنّ النبيّ موسى أو عيسى عليهما السلام قد ارتكب خطيئة ما وذلك حسب ما وصل اليه من تحليل تاريخي! فنتائج مثل هذا التحليل لاتُحدّ بحدود تدليس الحقائق وحسب، بل تتجاوز ذلك لتتلاعب وتؤثر بشكل مباشر على شخصيّة أتباع الديانتين اليهودية والنصرانية منذ انطلاقهما. فالنظريّة المزعومة في حقيقة الأمر قد تلاعبت واستهانت بالمليارات من البشر، ويمكن اعتبارها أكبر ظلامة يمكن أن تُرتكب بحق التاريخ البشري.

ومن جملة الأُمور المهمّة المنهجية السياسية للامام علي بن أبي طالب عليه السلام [والتي ينبغي أن تُدرس بشكل دقيق]، فقد زعم بعض المسلمين أنّ الإمام عليه السلام لم يكن سياسيّاً [بمعنى الكلمة]، وقد أسسوا بذلك نظرية تاريخية مصطنعة سوّدوا بها صفحات الكتب، ثم قدموها إلى الغربيين الذين قاموا من جانبهم، وفي ظروف خاصة- عامدين أو جاهلين- بتدوين هذا التاريخ المزور وألبسوه حُلّةً جديدةً ثم أعادوه إلى المسلمين، فاستقبله عوامهم بإعجاب وتقدير دون أدنى تحقيق ودراسة.

وحينما يطردُ هذا الصنف من الناس من مهنهم ويُمسوا عاطلين عن العمل ويجرّهم الفراغ إلى كتابة التاريخ وفلسفة حوادثه، تجدهم يُقدِمون على تدوين الفقرات التالية كباكورة عمل جديد ليقولوا: لقد كان علي بن

أبي طالب رجلاً هُماماً وشجاعاً وزاهداً وحكيماً، ولكنه للأسف لم يكن رجل سياسة، ولذلك فلا يمكننا القبول بالمكانة والمرتبة التي أولاها إيّاه الكثيرون .

وعلى هذا المنوال من القراءات والتحليلات التاريخية يسير هذا النمط حتى النهاية، وهكذا هو في أعماله الأُخرى!

ويمكن القول بأنّ مَردّ هذا النوع من الأحكام والاستنتاجات إلى جهل منظّريها وعدم اطّلاعهم على حياة الإمام علي عليه السلام والحوادث التي وقعت في العهد الإسلامي الأوّلَ بشكل دقيق، وعدم إحاطتهم بحقيقة السياسة وادارة شؤون الأمة بشكل بيّن.

ومن أجل أن نكشف اللبس الحاصل - عمداً أو سهواً- ارتأينا إلقاء الضوءعلى القضايا التي تتعلق بالسياسية و الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام؛ كي نرفع الإبهام والإشكال الحاصل في هذا المقام. آملين أن يُتحفنا قارئنا الكريم بما يراه من إشكال في المقام، كي نكون قد أدّينا ما علينا من وظيفة في إظهار الحقيقة، ورفع اللبس عنها دون أدنى إغماض وتسامح؛ لأنّ هذه الحقائق مما يتوقف عليها مصير الشعوب ومستقبلهم.

حقيقة السياسة:

لقد اختلفت الآراء في تفسير معنى السياسة، وهو أمر مألوف في عالم الاصطلاحات. فقد وقع الاختلاف في كثير من المفاهيم المهمة الأُخرى. وفي هذا المضمار لانريد الخوض في مختلف الأقوال والتشعّبات

الحاصلة، بل نودّ الإشارة إلى ثلاثة تفاسير لمفهوم السياسة لها علاقة بموضوعنا، وهي:

١- السياسة: معرفة كيفيّة [طبيعة] العلاقات بين الفرد و الدولة والمجتمع والحكومة.

وقد نقلنا هذه العبارة المختصرة عن بعض مؤلفي الكتب التاريخية وفلسفة السياسة. ولكن وكما يبدو للقارئ فإن هذه الجملة لايمكنها أن تفسّر المعنى العام للسياسة بشكل صحيح؛ وذلك لعدم ملاحظة العلاقات والروابط الموجودة بين المجتمعات والحكومات والأفراد، هذا في حين يُعدُّ معرفة كل جزء من تلك العلاقات قسماً مهماً من أقسام السياسة دون أدنى شك. أضف إلى ذلك أنّ أهم نقطة كان ينبغي ملاحظتها في هذا الإطار، وفي تفسير معنى السياسة هي عدم أخذ السلطة [المرجعية] التي تشرف على عمليّة وتغيير وإيجاد تلك العلاقات والروابط المذكورة في مفهوم كلمة السياسة بنظر الاعتبار.

٢- ما ذهب اليه ارسطو طاليس[1] من تفسير لكلمة السياسة يقول في

---

(١) أرسطو طاليس،(٣٨٤- ٣٢٢ق.م): فيلسوف يوناني، تلميذ أفلاطون، وأستاذ الإسكندر المقدوني. يعتبر من أعظم فلاسفة الدنيا، وقد انسحب أثره على جميع المفكرين الذين جاؤوا بعده حتى منبلج العصر الحديث. من أشهر آثاره «الأُورغانون» في المنطق وكتاب السياسة وكتاب ما وراء الطبيعة وكتاب الطبيعة وكتاب الشعر. (موسوعة المورد).

كتابه السياسة: « إنّ أهم الخيرات كلها يجب أن يكون موضوع أهم الاجتماعات ذلك الذي يشمل الآخر كلّه، وهذا هو الذي يسمى بالضبط الدولة أو الاجتماع السياسي»[1].

ثم يذكر أرسطو هذا المعنى في موضع آخر من كتابه فيقول:

«العلوم كلها والفنون كلها الغرض منها خير ما. وأوّل ألخيرات يجب أن يكون الموضوع الأعلى للعلوم جميعاً، وهذا العلم إنّما هو السياسة»[2].

إنّ هذه العبارة لاتخلو من احتمال وقوع خطأ في ترجمتها؛ لانها قد ترجمت من اليونانية– وهي لغة الكتاب– إلى الفرنسية ومنها إلى العربية. ورغم إمكانية فرض هذا الاحتمال فإن مايقصده أرسطو من تعريف للسياسة واضح بالمقدار الذي نقصده. فأرسطو يعتبر السياسة تقريراً وإيجاداً أو تغييراً للعلاقات الاجتماعية نحو أفضل القيم و [تعاليم] الخير، وتتّضح منهجية أرسطو هذه من بعض مضامين كتاب الجمهورية لإفلاطون. وفي هذا الإطار يلزمنا أن نوضّح هذا التعريف المختصر للسياسة.

إنّ حقيقة الخير والعدل والحق أمر مطلوب ومراد من قبل جميع المجتمعات والحكومات، فلا يمكنك أن تجد فرداً أو مجتمعاً أو حكومة لاتعتبر نفسها حامية للخير والعدل والحق .

فلو سألت أسوأ الناس وأكثرهم إجراماً عن المنهج الذي يسلكه لقال دون أدنى ترديد: إنّي أسلك طريق الخير والحق والعدل. ولو كررت هذا

---

(١) السياسة، أرسطو طاليس، ترجمة أحمد لطفي السيد، الباب الأول (١)/ ٩٢.

(٢) المصدر السابق، الباب السابع (١)/ ٢١٢.

السؤال على زعيم أكثر الحكومات جوراً وقمعاً في العالم كجنكيز خان[١] وقلت له: ما الذي دعاك إلى سفك هذا الكم الهائل من الدماء ونهب هذه الثروات الطائلة؟ لأجاب بنفس الجواب المذكور.

ولذلك فإنّ الطريق الذي يسلكه الأفراد والمجتمعات والحكومات لايقصدون منه إلّا الانخراط في مسلك الخير وإيجاده .

ولا يمكننا أن ننكر هذه الحقيقة مع ملاحظة الظاهرة النفسية للأفراد والحكومات والمجتمعات، والتي ثبتت قطعيّتها بشكل لايشوبه الشّك، وهنا يمكننا أن نصل بوضوح إلى الحقيقة المتعالية التي يتضمّنها تفسير أرسطو لكلمة السياسة .

وبناءً على ما مر في التوضيح أعلاه فإنّ بالإمكان تطبيق تفسير أرسطو للسياسة على الجمل التالية:

«مادام جميع الأفراد والمجتمعات والحكومات لايؤدون شيئاً إلّا وهم يقصدون منه الخير، فلذلك ينبغي أن نؤمّن الوسائل اللازمة لنيل هذا الأمر. والعلم الذي يتكفل بيان كميّة وكيفية الوسائل المقصودة يطلق عليه عنوان «علم السياسة».

فإن كان تعريف السياسة ما ذكره أرسطو ووضّحناه بشكل مختصر هنا فهي في الحقيقة أفضل العلوم، كما أدرك ذلك أرسطو بالتأكيد. وأنّ

---

(١) جنكيزخان (١١٦٢- ١٢٢٧م): إمبراطور مغولي. يعتبر أحد أشهر الفاتحين في التاريخ. بسط سلطانه على منغوليا، وفتح شمال الصين ، ثم احتل مناطق واسعة في آسيا الوسطى والجنوبية وآسيا الصغرى. (موسوعة المورد).

السياسي هو أهمُّ شخصية إنسانية، بل وجوده ضرورة أكيدة.

٣- وقد ذكر تفسير ثالث للسياسة، وهو تفسير يثير الرعب في قلوب غير السياسيين، ويرفضه جميع الأحرار والمتدينين، ويزعم هذا التفسير أنّ السياسة عبارة عن: تشخيص الهدف الذي حدده السياسي والوصول إليه بأيّ وسيلة ممكنة.

وهذا التعريف وكما هو واضح لايَمُتُّ إلى الخير والسعادة بصلة، بل لايرتبط ثمة ارتباط بالمعايير والموازين، الإنسانيّة. فبناء على هذا التعريف يمكن القول بأنّ الحيوانات المفترسة زعامات سياسية وذلك لوجود نوازع لديها في عملية الافتراس والهيمنة، وهذا التعريف هو عين ماذكره أُسوالد اشبنغلر[1]:

«إن رجل الدولة بالولادة هو فوق ما هو صحيح وخطأ، وهو لايخلط بين منطق الحوادث ومنطق المناهج، وهو يهتم فقط «بالحقائق» أو «الأخطاء»- ولهذه القيمة نفسها هنا- بوصفها تيارات عقلانية، وفيما يتعلق بأعماله فقط. وهو يقدّر فعّالياتها وديمومتها واتجاهها ويضيفها عند اللزوم إلى تقديراته لمصير السلطة التي يوجهها. وله أكيداً معتقداته الخاصة، وهي معتقدات عزيزة عليه، لكنه يملكها بوصفه فرداً، أي بصورة شخصية،

---

(١) أُسوالد اشبنغلر، (١٨٨٠- ١٩٣٦): فيلسوف ألماني. قال بأن الحضارات تولد وتنضج ثم تموت، كالكائنات الحيّة، وأن الحضارة الغربية المعاصرة هي في طريقها إلى الموت، وبأن حضارة أخرى جديدة من آسيا سوف تحلّ محلها. أهم آثاره: «انحطاط الغرب أو تدهور الحضارة الغربية». (موسوعة المورد).

ولم يسبق أبداً لرجل سياسي حقيقي أن أحس يوماً بأنه مشدود إلى معتقداته حينما يمارس عمله» .

ولقد قال غوتيه[1]: «إن العامل يعمل دائماً بصورة لاشعورية، وليس هناك من إنسان يشعر ويعي ما خلا المتفرج».

وهذا القول ينطبق أيضاً على سولا[2] وروبسبيير[3] انطباقه على بسمارك[4]. وبت[5] أضف إلى ذلك أنّ الباباوات الكبار وزعماء الأحزاب الإنجليزية كانوا طيلة نضالهم للسيطرة على الأشياء، يعتمدون على المبادئ ذاتها التي يعتمدها الغزاة والمحدثو نعمة في كل العصور. ولنتأمل في تصرفات البابا

---

(١) غوتيه (١٧٤٩ – ١٨٣٢م): كبير شعراء الألمان وأحد عمالقة الأدب العالمي... له رواية شهيرة هي «أحزان فرتر الشاب»، وعدد من المسرحيات أهمها «فاوست» في جزءين. (موسوعة المورد).

(٢) سولا (١٣٨- ٧٨ ق.م.): قائد عسكري وسياسي روماني. نشب صراع عنيف بينه وبين ماريوس وأنصاره انتهى عام ٨٢ بانتصار سولا، وبسط هيمنته على روما. اعتزل الحكم عام ٧٩ قبل الميلاد. (موسوعة المورد).

(٣) روبسبيار (١٧٥٨- ١٧٩٤): من رجال الثورة الفرنسية. كان المحرك الأكبر للجنة الأمن العام، بسط الإرهاب الى أن قتل. (موسوعة المورد).

(٤) بسمارك (١٨١٥- ١٨٩٨): سياسي ألماني. أول مستشار للإمبراطورية الألمانية (١٨٧١- ١٨٩٠) التي كان هو مؤسسها الحقيقي. اشتهر بالحزم والاستبداد فدعي «المستشار الحديدي». (موسوعة المورد).

(٥) وليم بت (١٧٠٨ – ١٧٧٨م): سياسي بريطاني. رئيس الوزراء. قاد دفّة السياسة البريطانية خلال حرب السنوات السبع. والد«وليم بت» الأصغر. يعرف بـ «الأرشد». (موسوعة المورد).

أنوسنت الثالث[١]، الذي لامس النجاح في تحقيق السيطرة العالمية للكنيسة، ولنستنتج من هذه التصرفات دستور النجاح، إنك ستجد تصرفات البابا أنوسنت الثالث تتنافى إلى أبعد الحدود وجميع قواعد الأخلاق الدينية»[٢].

لقد استفيد هذا المعنى من كلمة السياسة لـ (بولتيك) وبشكل خاطئ لقرون مديدة، وساهم هذا المعنى في تعريف أفضل لمنهج الزعامات التي كانت تظنُّ أنّ المجتمع الإنسانيّ بل الطبيعة بأسرها لم تنشأ إلّا من أجلها. ولذلك فإنّ كل مانسمعه من ادعاءات ترتبط بمسائل اخلاقية مثل العدل وإعانة الضعفاء وتنظيم شؤون المجتمع والتنسيق و.... ليس سوى ألفاظٍ لايراد منها إلّا إغفال الرعيّة وإعداد الظرف اللازم للهيمنة والغلبة.

إذن وفي ظلّ مثل هذه ظروف والحقائق كيف يرجى أن يكون السياسي محافظا على القيم الإنسانيّة والتشريعات الدينية؟

سياسة الإمام علي عليه السلام:

بعد أن اتضحت المقدمة أعلاه نأتي لنقول: ينبغي على باحثي الحقيقة أن يُدركوا المقصود من السياسة والزعامة، فإن كان ماورد في القسم الثالث وأوضح معالمها «أُوسوالد اشبنغلر»، فعلي بن أبي طالب عليه السلام بطبيعة

---

(١) إينوسنت الثالث (١١٦١ – ١٢١٦م): بابا روما. آمن بأن السلطة الروحية يجب أن تكون فوق السلطة الزمنية، فأدى ذلك إلى نشوب الخلاف بينه وبين عدد من ملوك أوروبا وأباطرتها. شن الحملة الصليبية الرابعة (عام ١٢٠٢). (موسوعة المورد).

(٢) تدهور الحضارات الغربية، أسوالد اشبنغلر: ٢/ ٦٦٩– ٦٧٩، منشورات دار مكتبة الحياة– بيروت.

الحال كان على علم تام بالسياسة، لكنّه لم ينتهجها بشكل عملي أبداً.

إذ من المستحيل أن يضحّي الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام بالقيم الإنسانيّة وسُموّها وهو الذي أدرك حقيقتها وعظمتها في مقابل ظفر ظاهري لايدوم سوى أياماً معدودة.

إنّه علي بن أبي طالب عليه السلام الذي يسأمُ الحياة ويتمنى الموت حينما تصل اليه الأنباء بأنّ جارية [ذمّيّة] قد سُلبت خلخالها ظلماً وجوراً.

وعلي بن أبي طالب عليه السلام الذي يرى إبقاء نملة على قيد الحياة أحب إليه من السيطرة على الدنيا بأسرها...

وعلي بن أبي طالب عليه السلام الذي يحاول مهما أُوتي من قوة لئلا تراق قطرة دم ظُلماً بسيفه.

فمن الخطأ الفادح أن يُعدّ رجل كهذا في زمرة سفّاكي الدماء وأتباع الشهوات، بل هو من دون شك في عداد أئمة التوحيد، فإبراهيم الخليل وموسى بن عمران وعيسى بن مريم عليهم السلام لايمتّون بصلة لنيرون[1] وجنكيز ونابليون، رغم أنّ أئمة الحق لم يتسلّطوا على إنسان في الوجود في حين سيطر جنكيز على الدنيا بأسرها.

---

(١) نيرون (٣٧- ٦٨ م.): إمبراطور روماني (٥٤- ٦٨ م.). تميّز عهده بالطغيان والوحشية. قتل أمّه (عام ٥٩ م). أحرق رومة (عام ٦٤ م.) واتهم المسيحيين بذلك فاضطهدهم. انتحر بعد أن ثار عليه القادة العسكريون في أفريقيا وإسبانيا وبلاد الغال. (موسوعة المورد).

وإن قصدنا بالسياسة، السياسة الأصيلة وقلنا: إنّ السياسة هي ظاهرة فتح المجتمعات فعلي بن أبي طالب عليه السلام سيكون الرائد في هذا المجال دون شك، لكن شريطة أن نميّز بين نصر يقمع الشعوب البائسة ويكبّلها بقيوده، ونصر خالد يَلجُ أفئدة ومشاعر أبناء البشرية؛ ذلك لأن الظفر الدنيوي و الذي لايتعدّى الأيام المعدودة ويتحقق بقوة السلاح هو أشبه شيء بكابوس مؤقّت يوقع الرعب في النفوس برهة من الزمن، ثم يذهب من دون رجعة، ليعود الشخص بعد ذلك إلى حياته الطبيعية.

لقد نَحَتَ الأبرار تماثيل من نور لأئمة الحق في قلوبهم، لتخلد تلك الصور النورانية في الأفئدة بحيث لايمكن لأسوء الناس وأكثرهم إجراماً أن يزعم أنّ إبراهيم أو عيسى أو موسى عليهم السلام كانوا أشراراً، في حين تجد النفوس تشمئز بمجرد أن يذكر الساسة الجبابرة وأرباب النصر الظاهري. وهذه الرؤية يوضحها أوسوالد اشبنغلر:

«إنّ المشكلة الأولى هي في أن يجعل المرء نفسه شخصاً ما، أمّا الثانية- وهذه أقل وضوحاً من الأولى لكنها أقسى وأشدُّ وأعظم في نتائجها النهائية- فهي أن يخلق المرء تقليداً وأن يجعله سارياً عند الآخرين، كي يستطيع عمله أن يستمر بنبضه وروحه، بغية إطلاق تيار من نشاط مشابه لنشاطه، تيار لايحتاج إلى القائد الأصلي كي يحافظ عليه في شكل لائق.

وهنا يرتقي الزعيم إلى شيء ما كان، لاشك، سيُسمّى في العالم الكلاسيكي بالإله، فهو بهذا يصبح خالقاً لحياة جديدة، ويُمسي الجد

الروحي الأعلى لعرق فتي. أما هو نفسه بوصفه وحده فانه يختفي من التيار بعد بضعة سنوات قليلة.

لكن أقلّيةً دفع بها إلى الوجود تتعهد مجرى التيار وتحافظ عليه لوقت غير محدود.

وباستطاعة الفرد أن يولد هذا الشيء و هذه الروح، لمرتبة من طبقة حاكمة، وأن يخلّفها وراءه تركه للأجيال طيلة التاريخ، وهذه هي التي تعطي الآثار الباقية على الزمن إنّ وجود رجل الدولة العظيم أمر نادر...»[1].

ولاتحتاج هذه المضامين إلى زيادة بيان، بل يمكن للقارئ أن يتمعّن فيها ويجرد ذهنه من كل فكرة تنحو به صوب تقليد أو هوى، ليطبّق العبارات على حياة قسمين من السياسيين، ليرى هل تنطبق على السياسيين المعروفين أو على الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام؟

وفي هذا الإطار نبدأ بتحليل بعض العبارات الواردة في المقطع المذكور راجين من قارئنا الكريم إتحافنا بما تجود به قريحته من أفكار، عسى أن نوفّق لتغير ما تحمله أفكار البسطاء والسذّج من سفسطة ومغالطة.

يقول [اشبنغلر]:

«إنّ المشكلة الأولى هي في أن يجعل المرء نفسه شخصاً ما».

وهنا يمكننا أن نطرح السؤال التالي: ماهي الطريقة التي تمكننا من تحليل شخصيّة عمرو بن العاص الذي جرد ثيابه عن جسده [وكشف

(١) تدهور الحضارة الغربية، أُسوالد اشبنغلر: ٢/ ٦٧٢- ٦٧٣.

عورته] لينجو بنفسه، فصار شبه أُنثى سُلبت عنها إرادتها مقابل رجل؟

ثم كيف يمكن لشخص كمعاوية ان يجعل نفسه شخصاً ما في حين يتّحد مع عدو أجنبي وذلك بهدف اغتيال خليفة المسلمين؟

وهل يمكن أن تعتبر جريمة منع [معاوية] أعداءه من الماء كي يموتوا ضماً من الشروط التي تجعل المرء شخصاً ما؟

فلندع هذه الجملة ولنرى ما يقوله اشبنغلر: «السياسي الحقيقي هو الذي يمكنه أن يدوّن أثراً عالمياً لايحدّ بحدود، وذلك استعانة بقواه الباطنية».

فجميعنا على علم بوحدة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وأنّه عاش وحيداً، وسلك جانب العزلة في بداية حياته وبعد رحيل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إلى بارئه؛ وذلك لعدم وجود نقطة تلاق وسنخيّة بينه وبين سواه، ولكنه ومع كل ذلك راح يسخّر أبناء الدنيا بأسرهم لروحانيته وحكمته وعدله.

فلم يعهد تاريخ البشرية مبرراً يُحوّل ملحداً كشبلي شميل[1] الى منبهر في سياسة هذا الرجل ليقول في حقه: «الإمام علي بن أبي طالب عظيم العظماء، نسخة مفردة لم ير لها الشرق ولا الغرب صورة طبق الاصل لا قديماً ولا حديثا»[2].

---

(١) شبلي شميل (١٨٥٣- ١٩١٧): طبيب لبناني عربي. عُرف بحماسته لنظرية داروين في أصل الأنواع وتطورها، وبعمله على شرحها ودعوته إلى الأخذ بها في كل ما كتب ونشر. من آثاره: «فلسفة النشوء والارتقاء»، و«آراء الدكتور شميل». (موسوعة المورد).

(٢) الإمام علي صوت العدالة الانسانية، جورج جورداق.

طالعوا صفحات التاريخ البشري بدقّة، ودعوا مالديكم من عقائد موروثة، فهل يمكنكم أن تجدوا قائداً من قادة العالم البشري، يُضطَهَد رفاقه وأعوانه إلى حدّ لايمكنهم أن يُفصحوا حتى عن اسمه، ويقوم أعداؤه باستخدام أشدُّ الأساليب إرعاباً بحقّهم، من أجل طمس ذكره وإبعادهُ عن الساحة؟! إلّا أنّ كل هذه الجهود تبوءُ بالفشل، ويبقى هو الشخصية الإنسانيّة الأولى، التي تملأُ اسمها صفحات الكتب كأسمى شخصية انسانية، دون أن يسعى هو ولو بشكل من الأشكال في اصطناع هكذا مديح وإطراء.

ففي زماننا هذا و الذي يُعتبر الزمن الرائد من حيث معرفة القيم الإنسانيّة (لامن حيث الموافقة العلمية)[١] نرى أن ظاهرة الإطراء والمديح لعلي بن أبي طالب عليه السلام ترقى لتصل إلى أوجها من قبل جميع الأمم، حتى تلك المجتمعات التي لاتمُتّ إلى الدين بصلة.

فلو أنّ أمّةً نالت من شخصية الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام نتيجة جهلها بمكانته فسترفع بقيةُ الأمم صوتها مدوياً في شجب هذا الأمر دون أدنى ترديد.

وبناءً على ماذكر في هذه المقدمة يتّضح جليّاً أنّ السياسي الأصيل هو الشخص الذي استنار بهدى النبيّ إبراهيم الخليل عليه السلام والذي بدأت معطياته تتجلّى يوماً بعد يوم، وتنجذب إليه النفوس وتعتنق شرعته، خلافاً

---

(١) هكذا ذكر في الكتاب، وأغلب الظن أنه خطأ مطبعي، وأن الصحيح هو الموافقة العمليّة لا العلمية [المترجم].

لما آل إليه مصير الساسة والزعماء الدنيويين.

هناك من البسطاء من يزعم قائلاً: إنّ السياسي هو الشخص الذي يتمتّع بآلية تمكنه من ترسيخ مكانته في المجتمع وتثبيتها بشكل كامل، في حين عجز الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أن يلعب مثل هذا الدور؛ إذ لم يتمكن من ترسيخ مكانته في المجتمع بعد رحيل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

ولعلّ مايقصده هؤلاء من نفوذ للشخصية هو أن يسلّ القائد سيفه ويقود المجتمع بيد من حديد كيفما يشاء، ظنّاً منهم أنّ الرعية لاتعدو أن تكون إلّا شياهاً يرعاها في أي مَرج يشاء، ثم ينطلق بهم بعد ذلك إلى المجزر لِيَفري أوداجهم ثم يفترش جلودهم على أريكة مُلكه ليستقرّ عليها فتُبهر بمنظره هذا الأبصار، ويدخل الرعب قلوب الناس حين ترى هذا المشهد، مثلما فعل الحجاج بن يوسف بخصومه.

ولكن هؤلاء الناس عاجزون عن التعرّف بما لديهم من عقول على قيمة الحياة الإنسانيّة وعظمة الروابط الإلهية.

فهؤلاء لم يجهلوا وحسب معنى الإنسانيّة، بل الظاهر أنهم لايودّون التعرف على معناها. فالدين عندهم لايعدو أن يكون إلّا طقوساً ظاهرية. فمن أجل الوصول إلى الزعامة والسلطة لاينبغي أن تفرّط بكل السبل التي تتيح لك الوصول اليها. كما عهدنا ذلك من البابا آنوسنت الثالث.

ولايكتفي هؤلاء بهذا الفهم الخاطئ، بل يلاحظ أنّ بعض من كتب التاريخ يقع في أخطاء فادحة حين يكتب عن سيرة أئمة الهدى عليهم السلام؛ وذلك استناداً لكل مايمكن الاعتماد عليه من مصادر سطحية قاصرة. ثم

يبرز ليقول: حسناً فها هو الإسلام قد انتشر وفُتحت البلدان في فترة وجيزة، دون أن يتطرق بشكل دقيق إلى عدد من صار إسلامهم كإسلام أبي ذر الغفاري رحمه الله من هذا الكمّ الهائل من المسلمين الجدد.

فهل تمكن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وخلال هذه الفترة القصيرة إدخال حقائق الإسلام وأحكامه المتعالية في قلوب المسلمين بأجمعهم كما كان يرنو اليه؟ ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُم﴾[1].

والسؤال الذي يخطر في الأذهان هو: هل يكمن السرُّ في عدم رسوخ الإيمان الأصيل في قلوب المسلمين إلى بساطة النبيّ صلى الله عليه وآله [وعجزه]؟ أي هل يمكن القول بأن عدم تمكّن النبيّ صلى الله عليه وآله في تلك البرهة الزمنية بسبب افتقاد النبيّ صلى الله عليه وآله للكفاءة السياسية؟

[ولوقبلنا بمثل هذا الكلام] فيمكن القول بأن النبي إبراهيم عليه السلام والذي يعد أبو الأنبياء بعيداً عن السياسة من هذا المنطلق؛ لأنّه عجز عن إخضاع أقرب المقربين اليه! فمثل هذه الادعاءات لاتعدو أن تكون ضرباً من الوهم.

فرغم شوكة الإسلام وعظمته وعزيمة المسلمين وحماسهم في أيام الرسول صلى الله عليه وآله إلّا أن ذلك لم يَحُلْ دون وقوع أحداث عاصفة صدّعت صرح الإسلام وثلمت كيانه، بل هشّمت وجوده ودنّست حرمته. ولم يكن ليحدث هذا لولا هوى الزعامة وحبّ الرئاسة التي ابتُلي بها الدُخلاء. ألم

---

(١) سورة الحجرات: ١٤.

تكن هي السياسة [الأصيلة] بعينها التي جعلت علياًعليه السلام يصل إلى ماوصل اليه، وجعل نفسه شخصاً ما- وذلك بعد تلك المأساة [التي ألمّت به]- حينما تضاعف عدد أتباعه من أقليّة تُعدُّ بالأصابع إلى ملايين من الموالين الأوفياء خلال عدّة قرون.

فما ينبغي الإشارة إليه هو الكلام الذي يورده إشبنغلر حين يقول: «فالبستاني يستطيع أن يستحصل على نبتة من البذرة، أو بإمكانه أن يُحسن أصلها، ، وبمقدوره أن يدفع باستعداداتها الفطرية الخبيئة- أي بنموها ولونها، بزهرها وثمرها- إلى الازدهار أو إلى الوهن والفتور. فعلى بصيرته بالامكان- ولذلك الضرورات- يعتمد كلياً اكتمالها وقوتها وكامل مصيرها. لكن الشكل الأساسي للنبتة واتجاه كينونتها ومراحل هذا الاتجاه ومقاساته الزمنية، ليست بمتناول يدي البستاني، فعلى النبتة أن تنجزها بنفسها أو أن تذوي وتموت».[1]

[ولذلك] فما ذنب السياسي لو أبى عبيد الجاه والسلطة أن يفقهوا مبادئ الإنسانيّة وقيمها ويسيروا بها قُدماً؟

ولو تعامل بعض الناس مع الثروة والجاه والزعامة كقيمة انسانية محضة، فما ذنب السياسي الذي لايفرق بين الرعية في العطاء، ولاينفق من بيت المال إلّا بدقة متناهية، فلا تمييز إلّا بمقدار الجهد الذي يبذله كل فرد لمجتمعه؟

---

(١) تدهور الحضارة الغربية، أُسوالد اشبنغلر: ٢/ ٦٧٤.

فهل للعقول الضّيقة أن تجد دليلاً أوضح من عهد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إلى واليه على مصر مالك الأشتر في أمر حكومتها، على حنكة الإمام علي عليه السلام وأصالته السياسية.

إننا في مقام الرد على كلام هذا الصنف الذي يزعم أنّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لم يكن سياسياً، نقول: نعم، إنّ كلامهم واضح إلى أبعد الحدود، فلا داعي لهذا التطويل واللغط، فهم يقصدون بذلك أن يتقلد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام منصب الوزارة كمستشارٍ للنبي صلى الله عليه وآله ويمتنع عن نزال الأقران، أمثال عمر بن ود العامري ومرحب ممن تقطر الدماء من شفار سيوفهم!.

وإنه لم يتوخّ جانب الحذر حين نام في فراش النبيّ صلى الله عليه وآله كي ينجو النبي من القتل؛ لأنّ علياً عليه السلام لم يفصله عن الموت في تلك الليلة إلّا أن تتهاوى عليه سيوف الأعداء، وتفارق روحه الحياة فداء لهذا الطريق! فالأمر لايتماشى ومنطق الإنسان السياسي!

إنّهم يرون أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام لم يكن سياسياً حين ترك خوض معركة داخلية مع زعماء الخلافة الجديدة لاستعادة حقه، في حين كان يتمتع بقوة هائلة ويمتلك أنصاراً أشاوس لايهابون الموت.

فدع الناس يخسؤون في قعر جهنم، فما شأنه والناس، ولا يضره أسلموا أم كفروا ؟

نعم، فعليّ عليه السلام لم تكن له كفاءة سياسة، لانه لم يقاتل خوفاً من حدوث ردّة المسلمين الجدد وبقي رهين داره!

ومن السذاجة أن يعزل الحاكم الأقوياء عن أريكة السلطة فور وصوله إلى الخلافة، من وجهة نظر هؤلاء، لأن ذلك سيؤدي إلى ضعف حكومته. فقد كان من الضروري أن يترك معاوية في منصبه رغم كونه سفّاكاً ظالماً، لأنّ الظلم والعدوان وإناطة الحكم بغير مستحقيه، وطمس القيم فترة من الزمن أمر لابأس به [ولامناص منه].

وإنه لم يحسن التصرف حينما منح مناوئيه وأعداءَه الألدّاء فرصة الحياة، فتركهم يستسقون الماء ولم يمنعهم من ذلك! فلو كان سياسياً حقاً لترك عشرات الآلاف منَ البشر بل من الموحدين يتجرّعون الموت ظمأً، لتسنح له فرصة الوصول إلى سدّة الحكم!

ويذهب هؤلاء إلى أنّ علياًعليه السلام لم يكن أهلاً للسياسة؛ لأنّه كان يكره وبشدة مدح المادحين وإطراء المتملّقين، حيث كان يقول:

«فلا تثنوا عليّ ثناءً لإخراجي نفسي إلى الله واليكم من التقية في حقوق لم أفرغ من أدائها، وفرائض لابد من إمضائها، فلا تكلّموني بما تكلّم به الجبابرة، ولاتتحفظوا منّي بما يتحفظ به عند أهل البادرة، ولاتخالطوني بالمصانعة»[1].

ولانرى لزاماً الردّ على زعم هذا الصنف من المنظّرين، لكن ينبغي الاشارة إلى ملاحظة مختصرة، وهي:

أنّ هولاء قد وقعوا في شبهة، فجعلوا جنكيز في مصافّ إبراهيم

(١) شرح نهج البلاغة، محمد عبده: ٢/ ٢٠١، اصدار دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت.

الخليل عليه السلام، ونبوخذ نصّر[1] مكان عيسى بن مريم عليه السلام!!

وفي المقابل فإن معاوية سياسي [محنّك]، ولو شئتم التعرف على سياسته فما عليكم إلّا مراجعة عهده السياسي لسفيان بن عوف الغامدي، والذي أورده ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة:

«قال سفيان بن عوف الغامدي، دعاني معاوية فقال: إني باعثك في جيش كثيف ذي أداة وجلادة، فالزم لي جانب الفرات، حتى تمر بهيت فتقطعها، فإن وجدت بها جنداً فأغر عليهم؛ وإلّا فامضِ حتى تغير على الأنبار، فإن لم تجد بها جنداً فامض حتى توغل المدائن؛ ثم أقبل إليّ، واتق أن تقرب الكوفة؛ إنّ هذه الغارات ياسفيان ترعب قلوبهم، وتفرح كل من هو على مثل رأيك، وأخرب كلّ ما مررت به من القرى، وأحرب الأموال فإن حرب الأموال شبيه بالقتل وهو أوجع للقلب»[2].

هكذا هو عهد السياسي الكبير في ذلك المجتمع الإسلاميّ، والذي لا يعير أي أهمية للحياة الإنسانية، فهي ربما لا تعادل عنده قيمة نملة! ونعم ماقيل:

أين جنكيز من معاوية ليتعلّم وبخضوع من مدرسته ونهجه السياسي

(١) نبوخذ نصّر [الثاني] (٦٣٠- ٥٦٢ق.م.): ملك بابل الكلداني ابن نبوبولاسر مؤسس الأمبراطورية ا لكلدانية. يعتبر أعظم ملوك هذه الأمبراطورية. دمّر بيت المقدس (عام ٥٨٦ق.م .) وأسر عدداً من اليهود واستاقهم إلى بابل. (موسوعة المورد).

(٢)- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢ / ٨٥ – ٨٦

أسس السياسة ومناهجها؟

نعم، فمن الغريب على عالم السياسة- وبهذا المعنى- أن يمدّ الإمام علي عليه السلام يديه إلى السماء مناجياً ربه، في وقت كان العدو يُنظّم جيوشه وقواه، ويهمٌّ في أن يجد ثغرة للإجهاز على جيشه، ويمنعهم عن الماء، أو يُلقي بهم فيه ليموتوا حتف أنفهم، يقول في تلك اللحظات العصيبة:

«اللهمّ إليك أفضت القلوب، ومدّت الأعناق، وشخصت الأبصار، ونقلت الأقدام، وأُنضيت الأبدان. اللهم قد صرح مكتوم الشنآن، وجاشت مراجل الأضغان. اللهمّ إنّا نشكو إليك غيبة نبينا، وكثرة عدونا، وتشتت أهوائنا. ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين»[١].

ونراه وقبل أن تُدقّ طبول الحرب يصدر نداءً لجيوشه يقول فيه:

«لاتقاتلوهم حتى يبدؤوكم، فإنكم بحمد الله على حجة، وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أُخرى لكم عليهم، فاذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مُدبِراً، ولاتصيبوا معوراً، ولاتجهزوا على جريح، ولاتهيجوا النساء بأذىً وإن شتمن أعراضكم وسببن أُمراءَكم...»[٢].

قيل: إنّ عامة السياسين ممّن مَرّ ذكرهم في التعريف الثالث للسياسة يُخطئون عمليّاً في علاقتهم مع المجتمع، فهم يُحددون في البداية الهدف

---

(١) شرح نهج البلاغة، محمد عبده: ٣/ ١٥.

(٢) المصدر السابق.

ليقولوا بعد ذلك: نحن رهن إشارة المجتمع، ولكنهم وفي مقام العمل ينقلبون فجأة، فيُحكمون إرادتهم على المجتمع بأسره. نعم، لاينعم في حكمهم إلّا حوارييهم والمتملقين ممن يحوموا حولهم.

فلنُلقي نظرة على ما يقوله الإمام علي عليه السلام في هذا الإطار: «**إنّي أُريدكم لله وأنتم تريدوني لأنفسكم**»[1].

فهذه الجملة رغم كونها مختصرة إلّا أنها يمكن أن تُظهر شيئاً من حقيقة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وتقيّم ثرثرة المُبطلين.

حينما نتمعن في ثنايا التاريخ نجد أصنافاً من السياسيين لايختلفون ثمة اختلاف عن البهائم المفترسة، فتراهم يتملّصون من كل مسؤولية ووظيفة تقع على عاتقهم، إذ يحسبون المجتمع مُلكاً لإرادتهم، فهم في الحقيقة لايختلفون عن عمدة القرية وشيخها، الذي يستبسل السارق حينما يرى ضعفه واستكانته فينقضّ على بيوت القرية فلا يترك فيها دثاراً ولاطماراً إلّا وسرقه. ولذلك، فسياسة المكر التي يتبناها هذا الصنف من السياسيين تتطور في كل يوم [في هذا النهج]، ويخوضونها دون أن يعكّر مزاجهم شيء.

في حين يؤمن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام [بحقيقة أُخرى] ويقول: «**ألا وإنّي أُقاتل رجلين: رجلاً ادعى ما ليس له، وآخر منع الذي عليه**»[2]، فعلي بن أبي طالب عليه السلام يواجه نوعين من الناس:

---

(١) المصدر السابق: ٢ / ١٩.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٨٦.

الأول: من يزعم أنه يمتاز بخصوصية ما لايتحلى بها حقيقة.

الثاني: من ترك أداء ما عليه من الحق. ولايجد [الإمام علي عليه السلام] في هذا الاطار فرقاً في التميز بين زعيمٍ كطلحة والزبير، وإعرابي لايتمتع بمكانة اجتماعية. عندها تقوم قيامة أمثال طلحة والزبير ويؤججان نار حرب الجمل؛ لأنّ هذا التقسيم والمنهج الاجتماعي يتنافى والسياسة من منظارهما.

ولايفوتني إلّا أن أشير إلى ما يقوله علي عليه السلام: **«أيّها الناس، إنّما أنا رجلٌ منكم، لي مالكم وعليّ ما عليكم»**[1].

فلاحاجة إلى القول بأن منهج (سيادة الشعب على الشعب) بعيد كلّ البعد عن معنى السياسة في منطق هؤلاء السادة؛ لأنّ الساسة العادين- وكما يكشف التاريخ- كانوا يُمنّون أنفسهم في إخضاع [كل شيء] حتى المجرّات الكونية الأُخرى لرغباتهم وإرادتهم، سواء جرّت لهم تلك العملية نفعا أم ضرّاً.

وأختم بحثي هذا بجملة خالدة للسياسي الأوحد والأصيل والمنتصر بنصر الله [الإمام علي عليه السلام] حيث يقول:

«ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة، مالهم قاتلهم الله قد يرى الحول القلب وجه الحيلة، ودونه مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي عين

---

(١) آراء المعاصرين حول آثار الإمامية: ١٠٧ .

بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لاحريجة له في الدين»[1].

ويقول عليه السلام: «**لولا التُقَى لكنت أدهى الناس**»، أو كما جاء في بعض النسخ «**أدهى العرب**»[2].

ولهذا المعنى دلالة واضحة في حياة الإمام علي عليه السلام، فالمتبع لكلامه ولو إجمالاً لايتردد في أن علياً كان كذلك. وفي هذا الإطار نذكر بعض النماذج [التي تبيّن قراءة الإمام عليه السلام للحوادث المستقبلية ودقّة تشخيصه لها].

أ- حينما أصر الخليفة الثاني على أن يبايع عليٌّ عليه السلام الخليفة الأول قال الإمام عليه السلام مخاطباً إيّاه: «**إحلب حلباً لك شطره، اشدُدْ له اليوم ليرُد عليك غداً**»[3].

وقد أجمع المؤرخون على أنّ خلافة الثاني كانت قد تحققت بإمضاء الخليفة الأول فقط، ولم يكن للشورى أو الانتخاب أيٌّ دور في عملية التعيين.

ب- حينما رفع عسكر معاوية المصاحف على الرماح في حرب صفين والتي أُعدّت قبل تلك الحرب بفترة طويلة، قال الإمام علي عليه السلام بعد أن سمع شعارهم[4]:«**إنها كلمة حقٌّ يراد بها باطل**»[1].

---

(١) شرح نهج البلاغة، محمد عبده:١ /٩٢ .

(٢) غاية المرام: ٧/ ٨٢ وفي رواية ابن أبي الحديد: «لولا التقى والدين» شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١ / ٢٨.

(٣) الاحتجاج، الشيخ الطبرسي: ١ / ٩٦.(مطبعة النعمان، النجف الأشرف).

(٤) كان شعارهم: دُعينا الى كتاب الله ونحن أحقّ بالاجابة اليه (شرح نهج البلاغة، محمد عبده: ١/ ٨٥).

وليس هناك مؤرخ يقول بأن علياً قد تبادل النظر مع قادة جيشه حينما أطلق نبوءتَه السياسية تلك، بل يؤكد الجميع: أنه عليه السلام قال هذه الجملة بعد أن لاحظ ذلك المكر والخداع، الذي لم يقصد منه إلّا إغفال البسطاء والسذّج.

ج- حينما جاء طلحة والزبير إلى الإمام علي عليه السلام وقالا: «يا أمير المؤمنين، قد استأذنّاك للخروج في العمرة لأنّا بعيدان العهد بها، ائذن لنا بها»[٢].

فأجاب الإمام عليه السلام:

(وينبغي التمعن في هذا القول): «**واللهِ ماتريدان العمرة، ولكّنكما تُريدان الغَدرة**»[٣].

وهناك مئات الأحداث الدقيقة التي تنبّأ بها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وكانت كما قال.

والخلاصة: هو أنّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، كان على علم تام بالسياسة المُثلى التي طالما نشدها أبناء آدم عليه السلام، وقد عمل على تطبيقها بشكل عملي.

ولم يكن الإمام علي عليه السلام جاهلاً بالسياسة بمعناها الآخر، حيث لم يرد

---

(١) شرح نهج البلاغة، محمد عبده: ١ /٨٤.

(٢) كتاب الجمل، الشيخ المفيد ٨٩.

(٣) المصدر السابق: ٨٩.

المعنى الحقيقي والذي هو عبارة عن تشخيص الهدف والشخص وتحقيق الوسائل للوصول إلى الهدف بأيّ شكلٍ كان. ولكن الإمام عليه السلام رفض تطبيق هذا القبيل من السياسة؛ لأنه كان على علم بالأضرار التي ستلحق بالبشرية نتيجةً لتطبيقها.

الإمام علي عليه السلام والجهاد

يُعد الجهاد في الإسلام- والذي يقترن ذكره عادةً بظاهرة سفك الدماء وإراقتها- من الأحكام المهمة في الشريعة الإسلاميّة والأعراف الإنسانيّة. وهذه الأهميّة تجعلنا أمام واقع ينبغي ملاحظته والإجابة عليه بشكلٍ صحيح، فهناك من يقول: إنّ الإسلام كان مديناً للسيف في سرعة انتشاره وازدهاره.

ولأجل أن نصل إلى تحليل واقعي لهذه الظاهرة ينبغي أن نلقي نظرة إجمالية على البيئة التي عاش فيها النبيّ محمدﷺ يوم بدأ دعوته لله، وسنذكر هنا جملة أُمور، ونسعى أن تكون هذه الشواهد والدلائل من مصادر يتّفق عليها مؤرّخو المسلمين وغيرهم، أي سنعتمد في بحثنا هذا على مسائل مشهورة ومصادر اتفق الجميع على صحتها، ونمتنع عن ذكر الروايات الشاذة وغير المشهورة.

لقد بدأ النبيّ محمد ﷺ أوّل مراحل دعوته وإظهار رسالته، وذلك بعد نزول الوحي عليه، وهوعلى يقين لايساوره الشك بأنه مبعوث من قبل الله سبحانه وتعالى. وكانت دعوتُه في بداية المطاف لا تتجاوز حدود الدائرة الصغيرة جداً. فكان أوّل من آمن به من الرجال الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام، ومن النساء خديجة بنت خويلد سيّدة مجتمع الحجاز، والتي كانت تتمتع بمكانة رفيعة وثراء جمٍّ.

ثم بدأ النبيّ صلى الله عليه وآله يدعو مَن حوله من المقربين اليه في حركة سرّيّة بعيدة عن أعين المتربصين، حتى جاءه البلاغ الإلهي فأُمِرَ بدعوة أعمامه سادة قريش، ولكنه لم يجد منهم إلّا صدوداً. واستمر النبيّ صلى الله عليه وآله في حركته ودعوته غير آبهٍ بما حصل، وراح يبلّغ دعوته ورسالته صادعاً بها الى الجميع.وبحركة تدريجيةٍ ومتعثرةٍ بدأ عدد المسلمين يتنامى ويزداد، وأخذ الدين الجديد يطرح رؤىً مخالفة لممارسات عبدة الأوثان وعادات الجاهلية التي عمّت أرض الحجاز آنذاك.

وبعد جملة حوادثٍ كانت قد حصلت في إطار ضيق ولم تستطع جميعها من إحداث أيّ تغيير في موقف النبيّ صلى الله عليه وآله، بدأ زعماء قريش يسأمون مما حصل، وراحوا يعقدون الندوات- في نطاق ضيق أو واسع- للوقوف بوجه النبيّ صلى الله عليه وآله وإنهاء دعوته.

وفي تلك الفترة كانت قد بدأت جملة من الوساطات لإيقاف هذه الدعوة، وذلك باستخدام أُسلوبَي الترغيب والترهيب، وهنا نشير إلى إحدى هذه النماذج التي أوردها ابن هشام في السيرة النبوية:

«ورد أن عتبة بن ربيعة- وكان سيّداً- قال يومّاً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله صلى الله عليه وآله جالس في المسجد وحده: يامعشر قريش، ألا أقوم إلى محمّد فأُكمله وأعرض عليه أُموراً لعلّه يقبل بعضها فنعطيه أيّها شاء، ويكفّ عنّا؟ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يزيدون ويكثرون؛ فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم اليه فكلّمه؛ فقام اليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: يابن أخي، إنّك منّا حيث قد علمت

من السِّطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنّك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيم فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبتَ به آلهتهم ودينهم، وكفرت به مَن مضى من آبائهم، فاسمع منّي أعرض عليك أُموراً تنظر فيها لعلك تقبل منّا بعضها.

قال: فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «**قل يا أبا الوليد أسمع**».

قال: يابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً. وإن كُنت تريد به شرفاً سوَّدناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد [به] مُلكاً ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئيًا تَراه لاتستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطبَّ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئَك منه، فإنّه ربّما غلب التابعُ على الرجل حتى يُداوى منه، أو كما قال له.

حتى اذا فرغ عتبة، ورسول الله صلى الله عليه وآله يستمع منه، قال: «**أقد فرغت يا أبا الوليد؟**»، قال: نعم؛ قال: «**فاسمع منّي**»؛ قال: أفعل؛ فقال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **حم* تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ* وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ** ﴾[1].

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وآله فيها يقرؤها عليه، فلمّا سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه؛ ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) فصّلت: ١- ٥.

إلى السجدة، ثم قال: «**قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك**».

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس اليهم قالوا: ماوراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قطّ، والله ما بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يامعشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، خَلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، والله ليكوننّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تُصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلكُه مُلكُكُم، وعزُّه عِزُّكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سَحرك والله يا أبا الوليد بلسانه؛ قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم»[١].

ردود الأفعال:

حينما يأست قريش من حركتها المستمرة من اللقاءات وعمليّة الترغيب والترهيب، لم تجد سبيلاً إلّا إظهار العداء للمسلمين؛ ولذلك كانت كلّ عشيرة تعتقل وتعذب من أعتنق الإسلام من أبنائها، وتستخدم معهم كافة الأساليب الوحشية من ضرب وتجويع وترويع ومنع عن الماء.

وفي اللحظة التي تكون شمس مكة في أوج لهيبها، وعندما يتحوّل الحجر والمدر إلى مايشبه الجمرة الملتهبة، يأتي دور المراحل القاسية من التعذيب، فتكوى الأجساد وتعامل بقسوة بالغة. وكان التعذيب- الفردي أو الجماعي- يتضاعف بتضاعف عدد المسلمين، فاضطر النبيّ صلى الله عليه وآله في ظلّ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ١ / ٢٤١ – ٢٤٢.

هذه الظروف إلى أن يبعث مجموعة من المسلمين إلى الحبشة؛ كي يتخلّصوا من معاملة قريش القاسية. ولذلك خاطبهم صلى الله عليه وآله حينما كان بصدد إرسالهم إلى الحبشة قائلاً: «**لوخرجتم إلى الحبشة فإنّ بها مَلِكاً لايظلم عنده أحد**»[1].

[فخرجوا]، وحينما أحسّت قريش بالأمر لم تغضّ الطرف عما حصل، فأرسلت ممثلين لها إلى الحبشة كي تعيد المسلمين إلى مكة وتردهم عن دينهم. وعندما دخل ممثلوا قريش قصر ملك الحبشة طلبوا منه أن يعيد المسلمين المهاجرين إلى مكة.

فقال النجاشي: «لابد وأن أعرف السبب الذي دعا هؤلاء إلى المجيء إلى مملكتي».

فأحضر عدداً من المسلمين، فتحدثوا له عن النبيّ محمد صلى الله عليه وآله ودينه الذي يضمن سعادتهم. فقال النجاشي مخاطباً مبعوثي قريش: « لا والله لا أردهم عليكم ولا أنعمكم عينا»[2].

عندها بدأ النبيّ صلى الله عليه وآله دعوته [العامّة] بين القبائل العربية في مكّة المكرّمة، وخصوصاً في أثناء موسم الحج في منى، فكان يلتقي الحجيج ويدعوهم للوحدانية ويحذرهم من الشرك.

وكان من جملة القبائل التي دعاها الرسول صلى الله عليه وآله إلى الإسلام القبائل التالية:

---

(١) المصدر السابق: ١ / ٣٢١.

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير: ٣/ ٩٤.

١- بني كعب.

٢- بني حنيفة.

٣- بني عامر .

٤- بني خزرج.

الدعوة للجهاد:

ليس من المؤرخين من يقول: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد بدأ قريشاً القتال أو المواجهة- ولو مجابهة- بسيطة منذ بداية الدعوة وحتى بيعة العقبة (وهي البيعة التي حدثت قبل عامين أو ثلاثة أعوام من الهجرة إلى المدينة المنورة).

فقد كان للنمو التدريجي للإسلام الأثر البالغ في حدوث خشية عارمة في المجتمع القرشي الذي أصبح يهمّ في استخدام آليّة التعذيب الأكثر عنفاً وانتهاج المواجهة المسلّحة. وقد صوّر المؤرخون هذه الحقبة التأريخية بالشكل التالي: «وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله قبل بيعة العقبة لم يُؤذن له في الحرب، ولم تحلّل له الدماء، وانما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل، وكانت قريش قد اضطهدت من اتّبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم، ونفَوهم من بلادهم، فهم بين مفتون في دينه ومن بين معذّب في أيديهم، وبين هارب في البلاد فراراً منهم.... فكانت أوّل آية نزلت تأذن له في الحرب هي: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[1]، ثم أنزل الله عليه:

---

(١) الحج: ٣٩- ٤٠.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[1]

وعند الإمعان في هذه الحقيقة يمكننا القطع بأن نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله لم يتخذ الحرب وسيلة لبسط نفوذه وسيطرته، بل كان المشركون هم أول من بدأ الحرب والقتال. وفي ظل هكذا ظروف كان النبيّ صلى الله عليه وآله مُضطرا للدفاع عن نفسه وأعوانه، ولم يكن ذلك خياراً بالنسبة له، بل كان محض دفاع ومقاومة.

والمترصد للوقائع الحربية وطريقة القتال التي انتهجها النبيّ صلى الله عليه وآله يلاحظ أن ظاهرة الجهاد كانت لاتخرج عن عنوان الدفاع حتى في الحروب الابتدائية؛ وذلك حينما نكث اليهود والنصارى مواثيقهم مع المسلمين، فالنبيّ صلى الله عليه وآله لم يبدأ اليهود بالحرب إلّا حينما خشيَ من هجومهم على المسلمين.

وفي هذا الإطار سنذكر بعض الآيات الواردة في الجهاد كنماذج للتعرف على هذه الحقيقة:

١- ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ ...﴾[2].

٢- ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[3].

---

(١) البقرة: ١٩٣ و الانفال: ٣٩، نقلاً عن السيرة النبوية لابن هشام: ١ / ٤٦٧.

(٢) الحج: ٣٩- ٤٠.

(٣) الانفال: ٣٩ والبقرة: ١٩٣.

٣- ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ﴾[1].

٤- ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ* لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ* فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ* وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ* أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ﴾[2].

٥- ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ* فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ

(١) الممتحنة: ٩.

(٢) التوبة: ٨-١٣.

وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

٦- ﴿ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾[٢].

٧- ﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ* وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ* فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ* وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[٣].

٨- ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً...﴾[٤].

وتعدّ هذه الآيات نماذج مهمة لحقيقة الجهاد في الإسلام، ومن الواضح غلَبة الطابع الدفاعي والمقاومة على هذه الآيات. وفيها إشارة إلى

(١) التوبة: ٣- ٥.

(٢) التوبة: ٣٦.

(٣) البقرة: ١٩١- ١٩٣.

(٤) البقرة: ١٠٩.

وجود أمرٍ إلهيٍّ للنبي والمسلمين بالدفاع والمقاومة.

ونرى في الآية الأخيرة ملامح للطريقة التي عامل بها أهل الكتاب المسلمين، فقد ساهم أهل الكتاب [كما جاء في هذه الآيات] في إعاقة المدّ الإسلاميّ وانتشاره، بل سعوا في ردّ المسلمين عن دينهم.

وتُصرّح بعض الآيات الواردة في سورة التوبة والتي مَرّ ذكرها على: ضرورة البدء بالقتال بعد انتهاء الهدنة مع المشركين. ويظهر من هذه المجموعة من الآيات وآيات أُخرى أنّ الإسلام كان ينهج أحد طريقين في تعامله مع المشركين، وهما:

الأوّل: اعتناق الدين الإسلاميّ.

ألثاني: الحرب.

هذا في حين يضع الإسلام خياراً ثالثاً لأتباع الديانات الرسمية، يتجسّد في قبول الجزية والعيش في كنف الدولة الإسلاميّة [بسلام].

أضواء على منهجيّة الدولة الإسلاميّة

عند تحليلنا لظاهرة الجهاد والقتال في الإسلام لابدّ من دراسة جملةٍ من القضايا، وهي:

١- تعامَل الإسلام مع المشركين (عبدة الأوثان) على أساس خيارين [لاثالث لهما].

٢- أجاز الإسلام أتباع الديانات الرسمية[1]- وهي الأديان التي تعتمد

(١) يذكر المؤلف عبارة: الأديان الرسمية هنا وفي موارد لاحقة، والمقصود منها الأديان السماوية المعروفة التي تتمتع بوجود كتاب سماوي، مثل الدين اليهودي والدين النصراني [المترجم].

كتاباً سماوياً وتنقاد لأنبياء يوحى لهم- حرية ممارسة الطقوس الدينيّة بشكل مطلق، شريطة أن يقبلوا العيش ضمن إطار الدولة الإسلاميّة.

٣- هل حارب الإسلام غير الكفار، أوْ لا؟ ومن هم مصداق هذا العنوان؟

٤- لماذا فرض الإسلام سيطرته وسيادته على كافّة المجتمعات؟

٥- ماهي الطريقة التي انتهجها الإسلام في حروبه؟

٦- ماهي الجزية (أو مايطلق عليها اليوم بالضرائب السنوية)؟

٧- هل كان السيف والقتال السبب في انتشار الدين الإسلاميّ؟

٨- هل كان رقيّ الدولة الإسلاميّة نتيجةً لانتهاجها منطق الحرب؟

١- تعامَل الإسلام مع المشركين على أساس خيارين [لاثالث لهما]:

لقد ثبت فقهياً، وتاريخياً، واستناداً لأدلة معتبرة أن الإسلام كان يُخيّر المشركين بأحد خيارين لاثالث لهما: فإمّا أن يعتنقوا الإسلام، أو يترقّبوا الحرب والقتال.

إنّنا حينما نخوض في المسائل الروحية للإنسان، نجد أنّ فكرة وجود الخالق ووحدانيته من أعمق الظواهر التي تحسّسها في الأدوار الطبيعيّة للبشر، فحتّى أُولئك الذين أنكروا وجود الله سبحانه وتعالى يُذعنون ضمناً بأن هذه الحقيقة لو كانت موجودة فستكون أعظم الموجودات قطعاً. وهذه الفكرة تعتبر أسمى الأفكار شأناً ومكانة [في عالم الوجود].

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ الحط من مقام الربوبية السامي، ومقارنته بحجر ينحَته الإنسان بيده، لايُعدّ إهانة لمقام الربوبية السامي

وحسب، بل للإنسانيّة جمعاء، إذ مع علمهم بأنّ الحجر أو الصُلب والحديد مواد لاتعدو كونها جماداً و تتأثر بالمؤثرات الطبيعيّة وتفتقدُ لكل نوع من أنواع الحسّ والشعور، إلّا أنّهم رغم ذلك يعبدونها كشريك لله تعالى. فهل يبقى لمثل هذا الإنسان مقام أوشأن في حين يحتقر وبهذا الشكل أعظم مفهوم في الوجود، وأرقى فكرة تمثل محور تصوراته وهي فكرة الربوبية ومقامها الشامخ.

ولذلك فالسبب الذي دعا الإسلام إلى قتال المشركين إنما هو عدم إيمانهم بالله تعالى، فلو عدّوا أنفسهم من أهل الكتاب وآمنوا بمقام الربوبية، لعاملهم الإسلام كما عامل أهل الكتاب، أي كان بإمكانهم العيش كما عاش بقية الأجانب في الدول الإسلاميّة، وذلك بعد دفع ضريبة معيّنة.

٢- إلزام الأديان الرسمية من أهل الكتاب بقبول الحاكمية الإسلاميّة:

لقد أثبتت الدراسات التاريخية والفقهية، أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يُلزم أتباع الأديان بقبول معتقداته [الإسلاميّة] أبداً، بل العكس فقد نظر النبيّ صلى الله عليه وآله بعين الاحترام إلى معتقداتهم، سوى المنحرفة منها فقد قابلها بالاعتراض والرد، وكما جاء في الآية المباركة: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

---

(١) آل عمران: ٤٤.

لقد خيّر الإسلام هؤلاء بأحد الخيارات الثلاثة:

الأول: إعتناق الدين الإسلاميّ.

الثاني: الإنقياد للحكومة الإسلاميّة وبذل الجزية من أجل الحفاظ على شؤونهم الحياتية، الفردية منها والاجتماعية.

الثالث: الحرب.

٣- هل حارب الإسلام غير الكفار، أوْ لا؟ ومن هم مصداق هذا العنوان؟:

لقد حارب الإسلام كل من خرج باغياً في البلاد الإسلاميّة، وحارب مانعي الزكاة، وإن لم يصنّفهم ضمن البغاة (لقد أعرضنا عن التفصيل لوضوح السبب المنطقي لهاتين المسألتين).

٤- لماذا فرض الإسلام سيطرته وسيادته على كافّة المجتمعات؟:

ربما يكون هذا البحث أهم بحث سنتناوله في هذا الموضوع.

ولابدّ من القول بأنّ هناك أدلّة قاطعة تُثبت الأساس المستحكم والعادل للحكومة الإسلامية بشكل واضح. ويتمحور استدلالنا في هذا الإطار على ماورد من أحكام ذكرتها الشريعة الإسلاميّة، أضف لذلك المنهج العملي الذي انتهجه حُكّام المسلمين في هذا السياق:

أولاً: أنّ معرفة الإسلام وإدراكه لطبيعة الإنسان وحقيقتة وتقصّيه لما يمتاز به من أُمور دقيقة، تجعل بالإمكان القول بأنّ الإسلام قد أولى الحكومة- وتعني قيادة البشرية وفق طريقة تضمن سعادتهم المُثلى- مرتبةً بالغة ورفيعة جداً.

فحريٌّ بنا أن نولي هذه المسألة الاهتمام البالغ والحقيقي، لا أن نرفع شعاراتها برّاقةً رنّانةً في حين نهمل حقيقتها.

إنّ قيمة كل زعيم وسلطة بل كلّ وجود اجتماعي وديني منوطة بالرؤية التي يحملها في تقييمه للإنسان؛ وذلك لما يمثّل من محوريّة لجميع النشاطات والفعاليات. وأمّا الطريقة التي يمكن من خلالها التعرف على أن النبيّ صلى الله عليه وآله أدرك الطبيعة البشرية والقيمة التي امتاز بها الإنسان، فذلك يتأتّى من خلال طريقين:

الأول : ما ورد في القرآن الكريم (الدستور الإسلاميّ) من أُسس عامة تخصّ الإنسان. وقد أوردنا هذا في مقدمة بحوثنا بشكل تفصيلي وسنتعرض له هنا بشكل مختصر.

الثاني : شهادات أهل الخبرة والاطّلاع، ممّن لهم إلمام بحقائق الإسلام، أضف لذلك منهجية النبيّ صلى الله عليه وآله وأصحابه فيما يرتبط بالإنسان.

لقد ذكرنا في ما مضى أنّ الأسس التي أوردها القرآن الكريم في مايخصٌّ الإنسان، لم تكن أُحاديّة الجانب، بل شملت جميع نواحي الإنسان وشؤونه، فمنها:

١- الإنسان موجود متغيّر الصفات والطباع، وذلك من حيث الشقاء والسعادة، ولايُعدّ موجوداً جامداً أو محدوداً.

٢- إنّ بالإمكان امتداد هاتين الصفتين إلى ما لانهاية. فيمكن للانسان أن يصل إلى الرُقيّ بحيث يكون في جنب الله تعالى وقربه، كما وصل إلى هذه المرتبة: إبراهيم الخليل، وموسى بن عمران، وعيسى بن مريم عليهم السلام،

ومحمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله، وعلي بن أبي طالب عليه السلام. ويمكنه أن يسلك سبيل الشقاء فينحطّ إلى منتهى الانحطاط كما انحطّ فرعون، والأوغاد من بني إسرائيل، وعبد الرحمن بن ملجم.

٣- إنّ هاتين الصفتين لاتتحققان من دون أخذ قابليات وحدود واختيارات الإنسان بنظر الاعتبار.

٤- إنّ طبيعة الإنسان جوهرة قيّمة، لها قابلية العروج والانحدار.

٥- يتصف الإنسان بصفة النفعية في حياته، وذلك من خلال وجوده الذي يتأطر في اطار المادة جسدياً، ويميل إلى الذات. ولولا وجود الرادع الخارجي مثل الإيمان [بالله] لهيمنت عليه المصلحية التي لايمكن أن تشقّ طريقها بالنسبة الى بقية الموجودات، كما هي عليه لدى الإنسان .

٦- لو أمعنّا النظر في المكونات الأساسية للطبيعة الإنسانيّة سيتّضح لنا: أن القيمة الحقيقية التي يوليها الخالق للإنسان- بغض النظر عن جميع العوارض التي تسوقه نحو الفساد – كبيرة جداً ورفيعة للغاية، بحيث يقارن الفرد الواحد بجميع البشرية.

ولو نقّبتم في جميع المذاهب الإجتماعية والفلسفية والسياسية، فسوف لاتجدون مذهباً [أو نظرية] كالاسلام يثمّن هذا الإنسان، وبهذا الشكل الطبيعي والتقييم الواقعي. فقد عجزت المذاهب أن تبحث الكيان الإنسانيّ بشمولية كما فعله الإسلام. وإن وجد مثل هذا المذهب وكان بإمكانه أن يعالج هذا الواقع فسيكون موافقاً للإسلام وسيضمن سرمديته وبقاءه.

لقد بحث الإسلام مفهوم الحياة والروح الإنسانيّة بغضّ النظر عن كون

الإنسان انساناً. ولم يكتف بهذا، بل شملت نظرته وبحثه حتى أصناف البهائم كموجودات من ذوات الارواح، ولذلك رأيناه يقرر رأيه في تلك الموجودات ليقول: «لايجوز إتلاف موجود حي من دون سبب وإن كان ذلك الموجود عديم الفائدة».

وفي هذا الاطار سنذكر بشكل اجمالي بعض الأحكام الشرعية التي تولي البهائم حقوقاً معينة في الإسلام، ومنها[1]:

١- يجب على من يملك حيواناً ما، أن يؤمّن له وسائل العيش الطبيعية التي يحتاج اليها، وفي حال لم يتمكن من ذلك أو رفض تأمين الوسائل اللازمة، فإن كان من الاصناف التي يحلّ اكلها جاز له ذبحه والاستفادة من لحمه. وان لم يتمكن من ذلك أو كان من اصنافٍ لايجوز اكلها، فيجب عليه بيعه أو أن يؤجّره ويؤمن له وسائل العيش. فإن لم يتمكن من العمل بما ذكر، أو رفض أداء هذه الامور وجب عليه أن يدع الحيوان ليسعى هو بذاته في الحصول على مايسدُّ به رمقه.

٢- لو أبى المالك أن يفعل ما ورد من أحكام بالنسبة له [في الفقرة الأولى] أجبره الحاكم [الشرعي] حفاظاً على حياة الحيوان، وعملاً بما تقتضيه مصلحته من العمل بأحد الخيارات أعلاه.

٣- لو رفض المالك الانصياع لأحد هذه الخيارات، فهنا سيكون زمام

---

(١) لقد بحثت في المصادر الفقهية مستخدماً القرص الكامبيوتري (المعجم الفقهي)، ولكنّي لم اعثر على مصادر الفقرات الفقهية المذكورة. كما ان المؤلف اوردها باللغة الفارسيّة ولم يذكر مصادرها. [المترجم]

أمر الحيوان بيد الحاكم. ويمكن للحاكم أن يبيع بعض الاموال المنقولة [أو يضع يده عليها] كي ينفقها في مصلحة الحيوان. نعم قد ينحصر الأمر في أن يبيعها، ولذلك فسيكون من حقّ الحاكم فعل ذلك.

٤- يجوز لمالك الماشية أن يحلب الفائض من الحليب الذي يحتاجه رضيع الماشية، ولو أُصيب الرضيع بضرر نتيجة الاستهلاك الكبير للحليب فسيعدُّ المالك متعدّياً نتيجة فعلته تلك.

ولو كان لدينا مقدار من الماء لايكفي إلّا إلى إرواء إحدى بهيمتين، إحداهما ممّا يؤكل لحمه، والأخرى غير مأكول اللحم- ولو كان كلباً غيرعقور- ففي مثل هذا المورد يرى بعض الفقهاء وجوب إعطاء الماء للحيوان غير مأكول اللحم (كالكلب). وعلّل هذا الصنف من الفقهاء ذلك بإمكانية الاستفادة من لحم الحيوان المأكول اللحم (كالشاة)، في حين يعتبر هلاك الحيوان غير مأكول اللحم أمراً مرفوضاً، لعدم إمكان الاستفادة من لحمه.

ويجيب الفقهاء عن السبب الذي دعاهم للقول بشرعيّة الحقوق المذكورة: من أن هذه الحقوق قد شرّعت للحفاظ على حياة الحيوان من ذي الروح، كي لاتُزهق حياته سُدى.

وفي هذا الإطار يمكننا بيان ما تمتاز به قوانين الحكومة الإسلاميّة من قسط وعدل، وذلك بملاحظة ماتوليه من تقييم واحترام لذوات الأرواح وخصوصاً النوع الإنسانيّ منه، ولانحتاج في ذلك إلى مناقشة وبحث إضافي. اذ لم يكن بوسع جميع المذاهب في العالم التعرف على حقيقة

الإنسان كما عرّفها الإسلام. ويمكن الاستدلال على هذا الادعاء بما ذكره جملة من المؤرخين الغربيين. وكمثال على ذلك نذكر مادوّنه ويل ديوارنت المؤرخ الأمريكي الشهير، ومؤلف «قصة الحضارة»:

«يبدو أنّ أحداً لم يعن بتعليمه [النبيّ محمدﷺ] القراءة والكتابة، ولم تكن لهذه الميزة قيمة عند العرب في ذلك الوقت، ولهذا لم يكن في قبيلة قريش كلها إلّا سبعة عشر يقرأون ويكتبون، ولم يعرف عن محمد أنه كتب شيئاً بنفسه، وكان بعد الرسالة يستخدم كاتباً خاصاً، له، ولكن هذا لم يحل بينه وبين المجيء بأشهر وأبلغ كتاب في اللغة العربية، أو بين قدرته على تعرف شؤون الناس تعرفاً قلّما يصل إليه أرقى الناس تعليماً»[1].

والمقصود هنا: الإشارة إلى الجملة الأخيرة التي صرح فيها بوضوح قائلاً: «لم يحل بينه... أو بين قدرته على تعرف شؤون الناس تعرفاً قلّما يصل اليه أرقى الناس».

ونذكر جملة أُخرى أوردها هذا المؤلف في نفس المصدر المذكور أعلاه: «واذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا: إنّ محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجيّة، حرارة الجو، وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله»[2].

---

(١) قصة الحضارة، ويل ديورانت: ١٣/ ٢٢، (اصدار دار الفكر).

(٢) المصدر السابق: ٤٧.

«الإسلام أبسط الأديان كلها وأوضحها»[١].

ويذكر أيضاً: «وبفضل تشجيعهم ومعونتهم انتشر التعليم، وازدهرت العلوم والآداب والفلسفة والفنون، ازدهارا جعل آسية الغربية مدى خمسة قرون أرقى أقاليم العالم كله حضارةً»[٢].

«ويمكن القول بوجه عام: إنّ المجتمع الإسلاميّ كان مجتمعاً ذا أدبٍ راقٍ إلى أقصى حدود الرُقي»[٣]

«لم تنعم الأندلس طول تأريخها بحكمٍ رحيمٍ عادل، كما نعمت به في أيام الفاتحين العرب»[٤].

والخلاصة: أنّ الحكومة الإسلاميّة كانت بصدد السيطرة على جميع المعمورة، وذلك بملاحظة ما تمتلكه من قوانين وأُسس تقوم على العدل والإنصاف.

ففي الحكومة الإسلاميّة تُلغى جميع المميّزات العرقية والشأنيّة بالنسبة لمن يتسنّم منصب الزعامة والقيادة. فقد كان بإمكان مُسلمٍ أسود قيادة مجتمع ما، شريطة أن يتمتّع بشروط الإدارة؛ لأنّ الإسلام لا يُميّز تميزاً

---

(١) المصدر السابق: ١١٦.

(٢) المصدر السابق: ١٥١.

(٣) المصدر السابق: ١٦٥.

(٤) لقد نقل المؤلف هذه العبارة عن ويل ديورانت، والكلمة لمستشرق مسيحي هو إستانلي لين بول نقلها ويل ديورانت عن لسانه وذلك في قصة الحضارة: ١٣/ ٢٩٢.
واستانلي لين بول هو مؤلف كتاب حكم المسلمين في إسبانيا [المترجم].

عُنصرياً بين شخصيّة وأُخرى، إلّا بما تمتلكه تلك الشخصية من طهارة روحية وإيمانيّة [التقوى].

ويمكن الاستشهاد بالواقعة التاريخية التالية، والتي أكّدها المؤرخون- المسلمون وغيرهم- كدليل على المنهجية التي سلكتها الحكومة الإسلاميّة في التعامل مع المجتمعات المختلفة :

«لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم اليهم لوقعة اليرموك، ردّوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج، وقالوا: قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم. فقال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحبّ إلينا ممّا كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعنّ جند هرقل عن المدينة مع عاملكم. ونهض اليهود فقالوا: والتوراة لايدخل عامل هرقل مدينة حمص إلّا أن نغلب ونجهد، فأغلقوا الأبواب وسرّحوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود، وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صِرنا إلى ما كُنّا عليه، وإلّا فإنّا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد، فلما هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين، فتحوا مدنهم وأخرجوا المقلسين فلعبوا وأدّوا الخراج»[1].

وقد أورد جرجي زيدان هذه الواقعة في كتابه تاريخ التمدن الإسلاميّ[2].

ومن هذا المنطلق فقد بلغ الإسلام إلى ماهو عليه اليوم، وانتشر انتشاراً

---

(١) فتوح البلدان، لأبي الحسين البلاذري: ١٤٣، دار الكتب العلمية لبنان.

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي، جرجي زيدان: ١/ ٥٧- ٥٨، إصدار مطبعة الهلال بمصر.

مُذهلاً وسريعاً، ولولا الأُسلوب السَمح في إدارة شؤون الدولة ومنح الحُرّيات المنطقية للأُمم المختلفة، لم يكن ليحصل ما حصل. هذا مع علمنا بالظروف التي حدثت فيها هذه التطورات، حيث انعدام العلم والمعرفة بالأسس الإنسانيّة والطبيعية. وهذه [الظروف] بحدٍّ ذاتها تمنع الوحدة والإنسجام بين هذه المجتمعات بطبيعة الحال.

وقد أذعن أغلب المؤرخين - المسلمين وغيرهم [المستشرقين]- لحقيقة هذا الانتشار المذهل والسريع.

وفي هذا الاطار يمكننا الاستعانة بما أورده غوستاف لوبون (١٨٤١-١٩٣١) الخبير [الفرنسي] في علم الاجتماع، والذي تُعدّ كتاباته من أعمق الأثار المعرفية لحقائق المجتمعات، إضافة لما يتمتّع به من اعتراف من قبل مفكّري الشرق والغرب لإمكانياته العلمية في هذا الاطار.

يقول هذا المحقق الكبير في حديثه عن الحكومة الإسلاميّة والانتشار المذهل والسريع للاسلام :

«لم تَقِلَّ براعة الخلفاء الراشدين السياسية عن براعتهم الحربية التي اكتسبوها على عجل، فقد اتصلوا منذ الوقائع الأولى بسكان البلاد المجاورة الأصليين الذين كان يبغي عليهم قاهروهم منذ قرون كثيرة، فكانوا مستعدين لأن يستقبلوا بتَرحاب وحُبُور أيَّ فاتحٍ يُخَفِّف وطأة الحياة عنهم، فكانت الطريق التي يجب على الخلفاء أن يسلكوها واضحة، فعرفوا كيف يُحجمون عن حمل أحد بالقوة على ترك دينه، وعرفوا كيف يبتعدون، خلافاً لمزاعم الكثيرين عن إعمال السيف فيمن لم يُسلم، وأعلنوا في كل مكان أنهم

يحترمون عقائد الشعوب وعُرفَها وعاداتها، مكتفين بأخذهم في مقابل حمايتها جزية زهيدة تَقِلُّ عما كانت تدفعه إلى سادتها السابقين من الضرائب.

وكان العرب قبل أن يسعوا إلى فتح بلد يُرسلون رسلاً حاملين اليه شروطاً للوفاق، وتكاد هذه الشروط تكون مماثلة للشروط التي عرضها عمرو بن العاص في السنة السابعة عشرة من الهجرة على أهالي غزة حين حصاره لها، وللشروط التي عُرِضَت على المصريين وأهل فارس، فتلك الشروط التي عرضها عمرو بن العاص هي كما رواه المؤرخ العربيّ المكين ابن العميد: « أمرنا صاحبنا أن نقاتلكم إلى أن تكونوا في ديننا، فتكونوا إخوتنا ويلزمكم ما يلزمنا فلا نتعرّض اليكم، فإن أبيتم وأعطيتم الجزية في كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم، ونقاتل عنكم من ناوأكم إن تَعَرَّض إليكم في وجهٍ من الوجوه ويكون لكم عهد علينا، فإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلّا السيف فنقاتلكم حتى تفيئوا إلى أمر الله».

ويثبت لنا سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذي كان يعامل به العرب الفاتحون الأُمم المغلوبة، فناقضه ما اقترفه الصليبيون في القدس بعد بضعة قرون مناقضة تامة، فلم يرد عمر أن يدخل معه مدينة القدس سوى عدد قليل من أصحابه، وطلب من البطرك صفرونيوس أن يرافقه في زيارته لجميع الأماكن المقدسة، أعطى الأهالي الأمان وقطع لهم عهداً باحترام كنائسهم وأموالهم وبتحريم العبادة على المسلمين في بِيَعِهم[1]».

---

(١) البِيع: جمع البيعة، وهي المعبد للنصارى.

ولم يكن سلوك عمرو بن العاص بمصر أقل رِفقاً من ذلك، فقد عرض على المصريين حرية دينية تامة وعدلاً مطلقاً واحتراماً للأموال، وجزية سنوية ثابتة لا تزيد على خمسة عشر فرنكاً عن كل رأس، بدلاً من ضرائب قياصرة الروم الباهظة؛ فرضي المصريون طائعين شاكرين بهذه الشروط دافعين للجزية سلفاً، وقد بالغ العرب في الوقوف عند حدّ تلك الشروط والتقيُّد بها، فأحبّهم المصريون الذين ذاقوا الأمرّين من ظلم عُمّال قياصرة القسطنطينية النصارى، فأقبلوا على اعتناق دين العرب ولغتهم أيّما إقبال.

ونتائج مثل تلك لا تنال بالقوة كما قلت غير مرة، فلم يظفر بمثلها من ملك مصر من الفاتحين قبل العرب.

وللفتوح العربية طابع خاص لاتجد مثله لدى الفاتحين الذين جاؤوا بعد العرب، فالبرابرة الذين استولوا على العالم الروماني والترك وغيرهم، وإن استطاعوا أن يُقيموا دولاً عظيمة، لم يؤسّسوا حضارة، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التي قهروها، وعكس ذلك أمر العرب الذين أنشؤوا بسرعة حضارة جديدة كثيرة عن الحضارات التي ظهرت قبلها ، وتمكّنوا من حمل أُمم كثيرة على انتحال دينهم ولغتهم فضلاً عن حضارتهم الجديدة»[1]

ويشير هذا المؤلف إلى السبب الذي جعل الإسلام ينتشر بهذه السرعة قائلاً: «إنّ القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين

---

(١) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر: ١٦٩- ١٧٠- ١٧١ ١٧٢ الطبعة الثالثة، إصدار دار إحياء التراث العربي.

أحراراً في أديانهم، فاذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين مما لم يروا مثله من ساداتهم السابقين، ولِما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل[١].

والتاريخ أثبت أنّ الاديان لاتفرض بالقوة، فلمّا قهر النصارى عرب الأندلس فضّل هؤلاء القتل والطرد عن آخرهم على ترك الإسلام.

ولم ينتشر الإسلام بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقت الإسلام الشعوب التي قُهرت مؤخراً كالترك والمغول، وبلغ من

---

(١) وقد ورد في هامش كتاب حضارة العرب العبارة التالية:

ذكرنا آنفا أن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة الى الغاية، وقد أعترف بذلك التسامح بعض علماء أوربة المنصفون، قال رويرتسون في كتابه (تاريخ شارلكن): «إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الاديان الأخرى، فهم مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم تركوا من لم يرغبوا فيه أحراراً في التمسك بتعاليمهم الدينية.

وقال ميشود في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية): «إن الإسلام الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الديانات الأخرى، فقد أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب، وحرم محمد قتل الرهبان على الخصوص، لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس، فذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود بلا رحمة وقتما دخولها».

وقال الراهب ميشو في كتابه (رحلة دينية في الشرق): «ومن المؤسف أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الاحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة». [المترجم].

انتشار الإسلام في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل أن زاد عدد المسلمين فيها على خمسين مليون نفس، ويزيد عدد مسلمي الهند يوماً فيوماً، مع أنّ الإنجليز الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر، يجهّزون البعثات التبشيرية ويرسلونها تباعاً إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى.

ولم يكن القرآن اقلّ انتشاراً في الصين التي لم يفتح العرب أيَّ جزء منها قطّ، فترى في فصل آخر سرعة الدعوة الإسلاميّة فيها، ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليوناً في الوقت الحاضر[١].

ويعدُّ جرجي زيدان في الجزء الأول من كتابه تاريخ التمدن الإسلاميّ، الأسباب التي مكّنت الحكومة الإسلاميّة من بسط سيطرتها فيقول:

« عدل المسلمين ورفقهم وزهدهم- وكان لتلك المناقب تأثير عظيم في من يدخل سلطان المسلمين من رعايا الروم أو الفرس وتلك كانت الوصية الأولى التي يتزودنها إذا خرجوا للفتح. واليك وصيّة أبي بكر لأُسامة يوم خروجه بالمسلمين نحو الشام قال: «لاتخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً أو تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعير إلّا لله. وسوف تمرُّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له»[٢].

---

(١) حضارة العرب ، غوستاف لوبون:١٦٢-١٦٣.

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي، جرجي زيدان:١/ ٥٥- ٥٦.

وفي حكاية الطائر الذي اتخذ من خيمة عمرو بن العاص عشّاً لفراخه، دليل مهم على مدى الرحمة والرأفة التي كان يتمتع بها المسلمون ، إذ تقول:

«لمّا استقر الجيش الإسلاميّ بقيادة عمرو بن العاص في مكان يُدعى اليمام (وهو اليوم مدينة من المدن)، أقاموا هناك خياماً. وحينما همّوا بالرحيل جمعوا الخيام، فلما وصلوا إلى خيمة عمرو بن العاص وجدوا طائراً قد اتّخذ عُشّاً من الاعشاب أعلى خيمته. فأخبروا عمرو بن العاص بذلك فقال: دعوا الخيمة حتّى يتمكن الأفراخ من الطيران.

ومن الأسباب الأخرى التي أدّت إلى انتصار المسلمين: «التسوية بين طبقات الناس رفيعهم ووضيعهم. ومن أوضح الأدلة على ذلك: ما كان من أمر جبلّة بن الأيهم ملك غسان، ألذي أسلم في زمن عمر بن الخطاب وجاء المدينة بخيله ورجله وقد فرح عمر بإسلامه، وخرج أهل المدينة للنظر إلى موكبه وفيه الخيول المعقودة أذنابها، وفي أعناقها سلاسل الذهب، وعلى رأس جبلّة تاج مرصّع بالجوهر- على أنّ ذلك، لم يمنع عمر من إقامة الحد عليه، لما وطأ أحد بني فزازة إزاره وهو يطوف في الكعبة، فرفع جبلة يده وهشم أنف الفزاري، فاشتكاه الفزاري إلى عمر، فبعث إلى جبلّة فأتاه فقال له:«ماهذا؟» قال:«نعم ياأمير المؤمنين، إنّه تعمّد حلّ إزاري ولولا حرمة الكعبة لضربتُ بين عينيه بالسيف»، فقال عمر: «قد أقررت على نفسك، فإمّا أن ترضي الرجل، وإمّا أن أقيده منك فآمُرُهُ بهشم أنفك كما فعلت»، فقال: «وكيف ذاك ياأمير المؤمنين وهو سوقة وأنا

ملك»، فقال: «الإسلام جمعك وإيّاه، فلست تفضله إلّا بالتقى والعافية»، فلم ير جبلّة مخرجاً من حكم عمر إلّا بالفرار، فهرب إلى القسطنطينية ولم يرجع إلى بلاد العرب.

ومثلها حكاية القبطي الذي ضربه ابن عمرو بن العاص، فذهب إلى عمر بن الخطاب في المدينة فاستعاذ به، فبعث عمر إلى عمرو [بن العاص]، فاستقدمه وابنه، فلما جاء أعطى الخليفة إلى القبطي سوطاً وأمره أن يضرب ابن عمرو، فضربه، وأراد أن يضرب أباه عمرو فقال عمرو: «إنّما ابني الذي ضربه»، فقال له «ياعمرو، مُذ كم تعبّدتم الناس وقد ولدتهم أُمهاتهم أحراراً»[١].

ومن جملة الأسباب الأُخرى التي أدّت إلى تطور وازدهار الحكومة الإسلاميّة وبسط سيطرتها كما يقول جرجي زيدان: «استبقاء الناس على أحوالهم: كان العرب إذا فتحوا بلداً أقروا أهله على ما كانوا عليه من قبل، لايتعرضون لهم في شيء من دينهم أو معاملاتهم أو أحكامهم المدنيّة والقضائية أو سائر أحوالهم. كذلك فعلوا بمصر لما فتحها عمرو بن العاص، فإنّه جعل أُمور الأقباط لأنفسهم يحكم في مصالحهم قضاة منهم. وفعلوا مثل ذلك في معظم ما فتحوه من البلاد»[٢].

والشواهد والمصاديق التي يمكن اعتبارها دليلاً على قسط الحكومة الإسلاميّة وعدلها، هي من الكثرة بحيث لايمكن لرسالة مختصرة أن

---

(١) المصدر السابق:١ /٥٦.

(٢) المصدر السابق.

تجمع كل ما هو وارد في موضوع الجهاد من منطلق إسلامي.

كيفية الجهاد في الإسلام:

إنّ تقييم الإسلام واحترامه للوجود الإنسانيّ بل ولجميع الموجودات الحيّة يمنح موضوع الجهاد في الإسلام منحىً جميلاً. فمن أجل أن يتضح هذا الموضوع لابد أن ننظر الى الجهاد من دون أن نغضّ الطرف عن ما يوليه الإسلام من مكانة وقيمة للوجود الإنسانيّ بل للوجود الحيّ بأسره.

فلايفوتنا حقيقة أنّ الإسلام هو الدين الذي يعتبر قتل نفس واحدة كقتل الناس جميعاً[1].

هذا مضافاً إلى موارد [وقِيم] أُخرى يمكن الإشارة اليها في هذا الصدد:

١- لاشك أن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كان جندي الإسلام الأول، بغض النظر عمّا كان يتميز به من خصال إنسانية وسِمات تجعله الرجل الاول في الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يحدّثنا التاريخ يوما أنّ علياً عليه السلام قد فرّ أو تقهقر أمام الجيوش أفراداً كانوا أو جماعاتٍ وقد أثبتت الفتوحات الإسلاميّة أنه الفدائي الأول وحامل لواء المجد في كل تلك الحروب والغزوات باستثناء حرب تبوك[2]، ورغم ذلك يقول في كلام له:

---

(١) اشارة الى الآية القرآنية: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾. المائدة، ٣٢. [المترجم]

(٢) لم يشارك الإمام عليّ عليه السلام في تلك الحرب؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وآله قد جعله خليفة له في المدينة خشية انقلاب الوضع من قبل المنافقين. [المترجم]

«والله لو أُعطيت الأقاليم السَبعةَ بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلِبُها جُلب شعيرة ما فعلت»[1].

لقد ربّى الإسلام علي بن أبي طالب عليه السلام، تربية تمنعه من أن يعصي الله في أهون فعل وهو سلب نملة- ضعيفة- جلب شعير. ليجعل ذلك في كفة، وأعظم المصالح الدنيوية التي يمكن أن يتصورها إنسان (السيطرة على الدنيا بأسرها) في كفة، معتبراً أن ذلك العمل الذي يبدو صغيراً أشد خطراً من ذلك النفع اللامتناهي، حتّى وإن نال لذائذ الدنيا بأسرها؛ لأنّ اقترافه يعني الوقوع في معصية الله تعالى. فهكذا كان جندي الإسلام الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي سلّ سيفه في كلّ واقعة، لا لشيء إلّا لمقارعة الأشرار وقتالهم، لكنه أبى أن يسلب النملة ذلك الموجود الحيّ جلب شعيرة ظلماً وجوراً.

٢- لقد أثبت الإمام علي عليه السلام ومن خلال تعامله الودود والرؤوف مع قاتله عبد الرحمن بن ملجم، إنّ قضية السيف في الإسلام لم تكن تهدف إلى إثبات القوة والسطوة، بل كان الهدف منها تهذيب النفس الإنسانيّة وتقويمها. لذلك رأينا علياً عليه السلام يوصي أولاده في مايفعلوه مع ابن ملجم، فيقول لهم: **«اعفو هو أقرب للتقوى»**[2].

---

(١) شرح نهج البلاغة، محمد عبده: ٢/ ٢١٨.

(٢) الشيعة في القرآن، محمد جواد مغنية:٣٩، دار الشروق. وهناك كلمة أُخرى وردت في نهج البلاغة، وهي على سبيل الوصية يقول عليه السلام: **«إن أبقى فأنا وليُّ دمي، وإن أفنَ فالفناء ميعادي، وإن أعفُ فالعفو قربة، وهو لكم حسنة، فاعفوا ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ**

٣- كانت أوامر النبي صلى الله عليه وآله في جميع حروبه تتأطّر بالتوجيه التالي:

«سيروا بسم الله وبالله، وفي سبيل الله، وعلى ملة رسول الله، لاتغدروا، ولاتغلوا، ولاتمثلوا، ولاتقطعوا شجرة إلّا أن تضطرّوا اليها، ولاتقتلوا شيخاً فانياً ولاصبياً ولا إمرأة ولا متبتلاً في شاهق، ولاتحرقوا النخل، ولاتغرقوا بالماء، ولاتعقروا من البهائم ممّا يؤكل لحمه إلّا ما لابد لكم»[1]

هذه هي ثوابت الإسلام في الحروب، فلنمعن النظر فيها، يقول صلى الله عليه وآله:«بسم الله وبالله وفي سبيل الله»، ولم يقل باسم الحسام، ومن أجل النصر. لم يقل باسم العروبة واستعانةً بالعروبة، ومن أجل النصر العربي. لم يتفوه صلى الله عليه وآله بكلمة: باسم القوميّة واستعانة بالقوميّة وفي سبيل انتصار القومية... ونظير هذه الأمور.

يقول صلى الله عليه وآله:«لاتغدروا ولاتغلوا ولاتمثّلوا» لانها من الممنوعات.

فلقد اعتادت البشرية على هذه الأمور في حروبها، بل اعتُبرت من أُسس الحرب.

أن ﴿يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾»، (شرح نهج البلاغة، محمد عبده : ٣ /٢١): وهناك كلام آخر ورد عنه عليه السلام أيضا وهو يختلف عما ذُكر أعلاه: «أحسنوا أسره، فإن عشتُ فأنا وليّ دمي، وإن متّ فضربة بضربة، ولاتمثّلوا بالرجل...» (شرح نهج البلاغة محمد عبده: ٣ / ٧٧). [المترجم]

(١) جواهر الكلام، الشيخ الجواهري:٢١ /٦٧.

ولم يكتفِ النبي صلى الله عليه وآله بمنع جنوده من الاستخفاف بأرواح البشر، بل أمرهم بعدم التعرض حتى للبهائم.

ثم يسمو النبي صلى الله عليه وآله في أوامره الإلزامية ليقول لجنوده:« لاتقطعوا شجرة إلّا أن تضطروا». ومن أحكام الجهاد أيضاً: حرمة إلقاء السُموم والمبيدات بين صفوف الأعداء.

٤- «لو تترّسوا [الكفار] بالنساء والصبيان منهم ممّن لايجوز قتله منهم كالمجانين كفّ عنهم، مع إمكان التوصّل اليهم بغير ذلك... إلّا في حال التحام الحرب، خصوصاً إذا خيف من الكفّ عنهم الغلبة»[١]، لكنه مشروط بمراعاة الحدّ من عدد القتلى وتقليصه. «ولو تعمده [قَتَلَ المتترّس بهم] الغازي مع إمكان التحرز لزمه القَود والكفارة.... ولو كان خطأً فالدية على العاقلة وعليه الكفارة»[٢].

٥- يكره أن يبدأ بالحرب قبل الزوال، كما في خبر يحيى بن أبي العلاء، عن أبي عبد الله عليه السلام: «**كان الإمام علي عليه السلام لايقاتل حتى تزول الشمس، ويقول...هو أقرب إلى الليل، وأجدر أن يقلّ القتل، ويرجع الطالب، ويفلت المنهزم**»[٣].

٦- على الغزاة أن يُبَيّنوا أُصول الإسلام وحقائقه، ففي خبر مسمع بن عبد الملك، عن الصادق، عن آبائه عليهم السلام قال أمير المؤمنين عليه السلام:«**بعثني**

---

(١) المصدر السابق :٧٢.

(٢) المصدر السابق :٧٢.

(٣) المصدر السابق :٨١.

رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اليمن، فقال: ياعلي، لاتقاتلن أحداً حتى تدعوه، وأيمُ الله، لأَنْ يهدي الله على يديك رجلاً خير لك ممّا طلعت عليه الشمس وغربت، ولك ولاؤه ياعليّ»[1].

ولابدّ من إعلامهم أنّ هدفنا ليس هو المال الدنيوي والمنال السلطوي ونحوهما[مما يستعمله الملوك]، ولكن لو بدر أحد من المسلمين إلى أحد من الكفار وقتله قبل الدعوة اعتبر [المسلم] مجرماً، وذهب بعض الفقهاء إلى القول بالضمان.

ومع ملاحظة الشروط أعلاه سيكون من السهل قبول أن النبي صلى الله عليه وآله في أنفاسه الأخيرة كان يحكم أرضا تعدلُ سعة أُوروبا باستثناء روسيا. ومن المتيقن أنّ عدد سكان تلك الأرض كان يتجاوز الملايين. لكن ورغم ذلك لم تتعد الخسائر ١٥٠ شخصاً من جيوش الأعداء، هذا باستثناء من قتلوا من يهود بني قريضة، حيث كانوا هم السبب في هلاك أنفسهم، وذلك نتيجة لاعتدائهم. ولم يتجاوز قتلى المسلمين الشخص الواحد في كل شهر، أي ١٢٠ شهيداً خلال عشر سنوات، ولو أضفنا هذا العدد إلى قتلى العدو فسيكون المجموع ٢٧٠ قتيلاً. في حين كانت الثمرة أن أسلم سكان أرض تعدل قارة أُوربا من دون روسيا[2].

٧- لم يكتفِ الإسلام بنهي المسلمين عن نكث العهود ونقضها وحسب، بل لو أنّ طائفتين من الكفار كانوا قد أبرموا عهداً للصلح بعد

---

(١) المصدر السابق.

(٢) رسول أكرم صلى الله عليه وآله در ميدان جنگ (الرسول الأكرم في ساحة الحرب): ٢١.

حرب وقتال، ثم همّت إحدى هاتين الطائفتين أن تتفق مع المسلمين كي تقاتل الأُخرى، فإنّ الإسلام يمنع مثل هذا العهد، وتدل على ذلك الرواية التالية:

«عن طلحة بن زيد عن أبي عبد الله عليه السلام سأله عن فرقتين من أهل الحرب. لكل واحدة منهما ملك على حدة، اقتتلوا ثم اصطلحوا، ثم إنّ أحد المَلكين غدر بصاحبه، فجاء إلى المسلمين فصالحهم على أن يغزو تلك المدينة، فقال أبو عبد الله عليه السلام: « **لاينبغي للمسلمين أن يغدروا ولايأمروا بالغدر، ولايقاتلوا مع الذين غدروا. ولكنهم يقاتلون المشركين حيث وجدوهم، ولايجوز عليهم ما عاهدوا عليه الكفار**»[1]

---

(١) جواهر الكلام: ٢١ / ٧٩.

الإمام عليّ عليه السلام ونهج البلاغة

إن اليوم الذي يدرس فيه نهج بلاغة علي بن أبي طالب عليه السلام بحيادية ودقّة سوف نستغني فيه عن كل المذاهب الإجتماعية والاخلاقية والاقتصادية والفلسفية.

نهج البلاغة، منهج الحق والحقيقة:

لم يكن هدفي من خلال سرد هذه العبارات التعرُّف على نهج البلاغة، لأنّ السلف الماضين من فطاحل الفكر والفلسفة والمعارف الحقيقية وحتى يومنا هذا كانوا قد انتهلوا قدر إمكانهم من معين نهج البلاغة في الماضي، لكن الغد أمر مجهول بالنسبة إليهم.

في حين لم يكن نهج البلاغة كتاب الماضي والحاضر فحسب، بل هو كتاب المستقبل أيضاً؛ لأنّ نهج البلاغة يمثل دراسة خالدة لوجود الإنسان وحقيقة العالم. فلم تكن الأُطُر التي تحدث فيها عن منهجية الإنسان والعالم وليدة الزمان والمكان لتكون محدودة بإطار زمني لاتتجاوز حدوده قرناً واحداً من الزمن على أحسن الأحوال.

إنه كتاب العصور الذي يعدّ النوابغ، فهم ينهلون منه بمقدار قابلياتهم وإمكاناتهم فقط.

فأيّ كتاب يمكنه أن يوضّح حقيقة الحياة كما وضّحها نهج البلاغة، وحدد دواء دائها، بل وبيّن حقيقتها كما هي عليه؟

هل بوسعنا أن نجد تفسيراً لمفهوم الحياة ولغز الوفاة في كتاب غير نهج البلاغة؟ هل بوسعنا أن نستنبط مذهباً اقتصادياً من مذاهب مختلفة صنعتها أفكار البشر القاصرة، كما هو الحال في نهج البلاغة؟

فالمذاهب والنظريات الاقتصاديّة الوضعيّة، وإن امتازت ببعض المزايا، إلّا أنها تشكو من بعض الثغرات المخلّة في برامجها.

فبعض المذاهب تُضحّي بالوجود الإنساني من أجل إقامة اقتصادها، ومذهب آخر يُفرغ الاقتصاد من محتواه ظنّاً منه أنّ ذلك سيخدم البشريّة. وثالث يطلق العنان للفرد بشكل يجعل المجتمع مجتمعاً لايملك قيمة أو مكانة. ورابع يعتبر المجتمع هو الأصيل، فيتحوّل الفرد فيه إلى كيان منزوي، في حين لايُضيّع[الإمام علي عليه السلام] في نهج البلاغة وتبعاً لدين الإسلام المتوازن، حقاً من حقوق طبقة من الطبقات، فيحافظ على حقوق الفرد والمجتمع.

فيهبُ الفرد الحريّة، شريطة أن لاتكون على حساب المجتمع. وإلّا قدّم مصالح المجتمع، أي يُرجّح المصالح الجماعية على المصالح الفردية. فنهج البلاغة يبين بوضوح أُسس الاقتصاد الإسلاميّ ومبانيه، تلك الأُسس التي تمنح كل ذي حق حقه، وتجعل المجتمع كالجسد الواحد، فكل فرد يمثل عضواً من أعضاء هذا البدن، فالأفراد كالعين والأُذن و المخ والصدر واللسان واليد والقدم لذلك الجسد.

فحينما تصاب القدم بالأذى تتحسس العين الأذى، لكن القدم لاتـؤدي ماتؤديه العين، ولايمكن لها أن تحصل على نفس نتائج عملها، بل لايمكن أن نحتمل منها صدور مثل هذا.

وأما الشأنية والمكانة فمعيارها التقوى وحسب، فمن قـام بـأداء وظائفـه عُدّ شخصيّة مرموقة ومحبوبة في المجتمع الإسلاميّ وحسب.

كما أن أُسس إدارة الحكم المذكورة في نهج البلاغة هي فـوق جميـع القوانين وتشمل كافة الادواء والدواء فيما يرتبط بالمجتمع.

إنّ كل قانون حقيقي وخالد جادَ به الفكر البشري فيما يتعلق بمنظومـة الحكومة وعلاقتها بالشعب- سـواء كـان مقتـصراً علـى حكومـة خاصـة أو عالمية- يمكن أن تراه في نهج البلاغة وفي عهـد الإمـام علـي عليه السلام لمالـك الأشتر، مع وجود مرجّحات غفل عنها غيره من القائلين العاديين.

إن ما يدهش المرء في نهج البلاغة هو أنّ هذا الكتـاب يتنـاول مفـاهيم مختلفة وبأُسلوب بليغ وجذّاب يجعلك تظنّ أنّ هذه المعـاني لاتحمـل فـي طياتها إلّا معنىً واحداً.

فحينما يتحدث الإمام علي عليه السلام عن مـاوراء الطبيعـة[1] فـلا تجـد تنـافٍ وتزاحم بين العقل والقلب في إدراك مسائلها، في حين تـرى وبوضـوح أنّ الفيلسوف يعجز عن معالجة موضوع ما بانتهاج سبل العلاج المطروحة من

(١) الميتافيزيق: حكمة ما بعد الطبيعة، الحكمـة الإلهيـة، عـالم المعقـولات «الإلهيـات، المعقولات ومعرفة العلل والأُصول الأولية». (قاموس عميد فارسي).

قبل المنهجين (العقلي والقلبي) في آن واحد، ولذلك يلاحظ أنّ الفلاسفة يميّزون دائماً بين مقتضيات العقل الفطري والعقل العملي (والذي يصطلح عليه البعض بعبارة الإدراك القلبي والوجداني)؛ لأنّ مسلكها يختلف في الروح الإنسانيّة.

إنّ أهم مايميّز نهج البلاغة- كما أُشير إلى ذلك [من قبل بعض المحققين]- هو أن هذا الكتاب قد تناول بالتحليل والبحث الحقيقة المتعالية للإنسان والعالم، وهي أُمور تهتم بها البشرية بشكل لايمكن أن نتصوّر أن تطرح قراءة تمتاز بدقة أكثر مما تناوله نهج البلاغة، وكمثال على ذلك: يمكننا أن نذكر ملامح لهذه الحقائق، فحينما يتناول الإمام علي عليه السلام مسألة الزهد والتقوى لاتتحسس في كلامه شيئاً سوى الانقطاع، حتى تظنُّ أنه انشغل عن الدنيا وانتهج الانعزال المطلق والزهد منذ ولدته أُمّه، أو كمن لم يعش في هذه الدنيا الدنية أبداً.

وعلى صعيد آخر ترى علياً عليه السلام يتحدث عن المجتمعات الإنسانيّة معرّفاً إيّاها، فتظن حينما تسمع كلامه أنه كان على تخصص في معرفة وتحليل الفرد والمجتمع الانساني فقط، فهو يعرف دقائقها ويذكر سبل علاجها، بشكل يجعلك تظن أنه هو نفس المجتمع.

وعندما تقرأ مايقوله عن الحرب بمقدماتها ونتائجها وكيفياتها، تقطع أن المتكلم وليد ساحات الحرب والراحل من الدنيا في لهواتها.

وحينما يروي جفاء الدنيا وتقلّب أُمورها تظن أنّ هذا الإنسان قد عاش منذ بداية الكون مع هذه البشرية، وخلد معها إلى نهاية التأريخ، كشاهد

على ما آلت إليه أُمورها صغيرة كانت أو كبيرة.

وفي مجال آخر، وعندما يتطرّق إلى أُسس القيادة وأُصولها في عهده لمالك الأشتر الذي علّمه إياه، يظن الظان أنّ علياًعليه السلام كان زعيماً للمجتمعات منذ اليوم الأول الذي وطأ الإنسان أرض المعمورة، ولو أنّ أوامر الإمام عليعليه السلام التي أوردها في خصوص القيادة قد طبّقت بشكل كامل في عصرنا الحديث، والذي يعبّر عنه بعصر المدنيّة، لكان بإمكان هذا العصر أن يسير بالمجتمعات نحو الصلاح والمثل.

وعند ملاحظة ما ورد من تشبيهات وكنايات في نهج البلاغة فإننا نعثر على معانٍ لطيفة تجعل المتأمل يظن أنّ هذا الرجل قد أمضى كل عمره في البلاغة والآداب وفنونها.

ولو أجرينا مقارنة بين ماذكره الإمام عليعليه السلام في مباحث التوحيد المتعالية وبين ماكتبه جميع الفلاسفة الموحدين، لرأينا أنّ جميع ما كتبوه لايبدو إلّا جملاً بدائية مقارنة بما ذكرهعليه السلام.

وخلاصة القول: هو أننا وبالرغم مما رأينا من خصال يتمتع بها الإمام عليعليه السلام- ذلك الإنسان الكامل الذي يتمتع بكل مقوّمات وصفات الإنسان التي لايمكن اجتماعها بهذا الشكل في إنسانٍ ما- نرى أن هذا الكتاب كشخصيّة مؤلفه، كتاب جامع لكل الشؤون الفردية والاجتماعية.

شبهات حول نهج البلاغة:

ومن الملاحظات الأخرى والمهمة التي لابدّ من ملاحظتها في هذا المضمار هو: أنّ البعض من المغفّلين أو المغرضين ظنّوا أن نهج البلاغة من

تأليف الشريف الرضي رحمه الله، وليس فيه مايمكن اعتباره من نتاج الإمام علي عليه السلام إلّا اليسير من الكلام.

ويعدّ أوّل من أبدى هذا الإشكال ابن خلكان[1]، وقد تبعه على ذلك بعض المؤلفين.

وللرد على هذا الاشكال نذكر الأمور التالية:

أولاً: أننا على اطّلاع بعلم السيد الرضي رحمه الله وحكمته وأدبه، ولعلّ ديوانه خير دليل على مانقول. فحتّى لو اعتبرنا الشريف الرضي في مقدمة الأدباء والشعراء، إلّا أنّنا لايمكن أن نعدّه من الفلاسفة وعلماء الاجتماع والاقتصاد والزهّاد، بينما لاتنسجم أصغر خطبة للإمام عليه السلام مع الإطار الفكري للشريف الرضي رحمه الله.

ثانياً : أنّ الخطب والرسائل التي وردت عن الإمام علي عليه السلام في كتاب نهج البلاغة كانت قد وردت في كتب يعود تاريخها إلى ما قبل ولادة الشريف الرضي. فالمشكلة في الحقيقة تنبع من سوء سريرة هؤلاء المتعصّبين، فلم يكن الشريف الرضي رحمه الله - لاسمح الله - ممن تقوّل مثل هذا الكلام.

ثالثاً: هل كان بإمكان أحدٍ منذ العهد الذي عاشه الإمام علي بن أبي

---

(١) ابن خلكان هو (أحمد البرمكي) (١٢١١- ١٢٨٢) ولد في أربيل وتعلم في حلب ودمشق والقاهرة، قاضي القضاة، وهو مؤلف كتاب «وفيات الأعيان وأنباء الزمان». (موسوعة المورد).

طالب عليه السلام وحتى عصر الشريف الرضي بل إلى يومنا هذا أن يتفوّه بكلمات في منتهى البلاغة وتتناول حقائق مختلفة ضمن سياق متناسق.

إنّ بامكان القارئ أن يُطالع الخطب والرسائل التي أبدعها التراث العربي قبل الإسلام أو بعده، حيث يُحتفظ بأغلب ما جاء منها، وقد ألّفت مئات الكتب في هذه الموضوعات، وعند مطالعتها سوف لا يجد القارئ تشابهاً بينها وبين ما هو في نهج البلاغة.

لقد زعم البعض أن الخطبة المعروفة:«**إنما الدنيا دار، مجاز والآخرة دار قرار**»[1] هي لمعاوية بن أبي سفيان. وهو مثير للسخرية. وقد أشار إلى ذلك الجاحظ في كتابه البيان والتبيين يقول:«أنا لم أجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد ولايذهب مذاهب العباد»[2].

ومن يراجع كتاب البيان والتبيين سيجد ذلك وسيقطع بأنّ معاوية أعجز من أن يتفوه بمثل هذا الكلام.

---

(١) شرح نهج البلاغة، محمد عبده: ٢/ ١٨٣

(٢) البيان والتبيين، للجاحظ:٢ /٢٧٠- ٢٧١، دار احياء التراث العربي. ولم نعثر في البيان والتبيين على ما نقله المؤلف عنه، أي عبارة: «إنما الدنيا دار مجاز، والآخرة دار قرار»، لكن وجدنا الخطبة [التي نقلها الجاحظ] ومن جملة ماجاء فيها: «أيها الناس، إنّا قد أصبحنا في دهر عنود وزمن كنود... فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة القرظ وقراضة الجلم»، وقد وردت أيضاً في نهج البلاغة (شرح نهج البلاغة، محمد عبده:١ /٧٩). [المترجم]

رابعاً: أنّ من البعيد جداً أن يتقوّل الشريف الرضي كلاماً وينسبه إلى شخصية أُخرى، وهو المعروف بمكانته الشامخة وشأنه الديني السامي. فبعض المخالفين ولأجل أن يثبّتوا عقائدهم التقليدية لايقفون عند تفسيق عدول الناس، بل يصل بهم المطاف إلى أن يعدّوا أبا طالب وأبا ذر في عداد الكفّار!! علّهم يبعدوا هذه النجوم الزاهرة عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. فليس ثمة إشكال لدى هؤلاء لو اعتبروا الشريف الرضي شخصاً كاذباً. فالكذب ضرب من الفنون في تاريخ البعض.

خامساً: لو كان نهج البلاغة من تأليف الشريف الرضي فما الداعي له أن يؤكد على بعض العبارات ؟

يقول بعد نقله لخطبة مثلاً: إن هذه الخطبة نقلت سابقاً، ولكننا أوردناها لوجود اختلاف في الروايات، أو أنها وردت بشكل آخر في الخطب الماضية، ولذلك ذكرناها مرةً أُخرى لوجود الاختلاف.

هدف المشكّكين

لقد أورد المحققون سببين مهمين للتشكيك في نسبة نهج البلاغة للإمام عليّ عليه السلام:

١- إنّ أنصار الإمام علي عليه السلام يضعون نهج البلاغة في الصدارة، ويؤكدون أن الآخرين لو كانوا بمنزلة علي عليه السلام لنُقل عنهم ثلث أو ربع ما في نهج البلاغة. وبعبارة أوضح: إن علياً كان عطاؤه نهج البلاغة، فما هو عطاء غيره؟

٢- لقد سجّل الإمام علي عليه السلام في مواضع كثيرة من نهج البلاغة

معارضته لمواقف السلف وبشكل صريح، وهذا يعني أن الأُمّة لم ترعَ كلام النبي صلى الله عليه وآله ووصاياه في حق الإمام علي عليه السلام؛ وعلى كل حال فإنّ البحث عن الحلول وتحليل المسائل العقائدية بذهنية محايدة وذلك بالاعتماد على المصادر التاريخية الصحيحة هي الطريقة الأفضل والأنجع من تدليس الحقائق.

إنّ أفضل دليل على أنّ نهج البلاغة من كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، هوعدم وجود من يزعم، بل يستحيل أن يدّعي أحد أن جميع ماورد في نهج البلاغة من خطب ورسائل ليس من كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، لأنّ محدّثي ومؤرخي الفريقين- السنة والشيعة- يقطعون بأن بعض ما ورد في نهج البلاغة من كلام الإمام عليه السلام. ولو آمن شخص بوجود اتفاق وإجماع من هذا القبيل –ولا أظن أنّ أحداً ينكر هذه الحقيقة إلّا اذا كان جاهلاً بالأصول الإسلاميّة والأحاديث الدينية- فلابد وأن يؤمن بأن جميع ما ورد في هذا الكتاب هو من تأليف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنّ من يمتلك حظّاً يسيراً من معرفة الأدب العربي لايشك بأن جميع ماورد في نهج البلاغة قد دوّن وفق سياق وأُسلوب واحد ومن قبل شخص واحد فقط. بلى، فالشمس في إشراقها لو توقّفت على قبول المشكّكين والمغرضين لكانت قد ودّعت الدنيا قبل ملايين السنين، ولغربت في مكانٍ مجهولٍ بعيداً عن هذا الوجود.

الإمام علي عليه السلام والعرفان الإيجابي

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾[1].

هذا هو العرفان الذي يعلّمه الإمام علي عليه السلام:

« اللهم إنّك آنس الآنسين لأوليائك، وأحضرهم بالكفاية للمتوكّلين عليك، تشاهدهم في سرائرهم، وتطّلع عليهم في ضمائرهم، وتعلم مبلغ بصائرهم.

فأسرارهم لك مكشوفة، وقلوبهم إليك ملهوفة، إن أوحشتهم الغربة آنسهم ذكرك، وإن صبّت عليهم المصائب لَجَؤوا إلى الاستجارة بك، علماً بأن أزمّة الأمور بيدك، ومصادرها عن قضائك»[2].

لايتردد الباحث المنصف في أُصول الدين وفروعه والذي يتمسك في دراسته بما ورد في آيات قرآنية أو أحاديث صحيحة، من الاعتقاد بأن الدين الإسلامي الحنيف قد وضّح سبل المعرفة والتكامل للإنسان، واعتبرالمعرفة الغاية الأساسيّة من الإيجاد والتكوين.

---

(١) آل عمران: ٣١.

(٢) شرح نهج البلاغة، محمد عبده:٢ /٢٢١.

ومن يزعم أنّ الإسلام يشوبه النقص في رسم مسار التكامل الإنساني فهو جاهل بالاسلام، أو مغرض.

وهذه الدعوى لاتختصّ بهذا القرن أو بمكان معين، بل كان الإسلام قد أعلن للملأ وبشكل بيّن، نداءَه الذي استوعب العالم بأسره؛ وذلك من خلال إرشادات قادته وزعمائه ومنذ اليوم الأول الذي انبثقت فيه الدعوة الإسلاميّة، أنّ حقائقه لا يعتريها نقص أوشائبة. فأيّ فكرة أو حقيقة خالدة وصل إليها الفكر الإنساني- بأفكاره الضعيفة أو القوية- ولم يشر إليها الإسلام أويذكرها؟

لقد ذكر الإسلام وبيّن ما كان ينبغي ذكره في الفلسفة والعلم والأخلاق وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد بشكل يتطابق والواقع ولو بنحو عام.

فإذا كان البحث في معرفة الله تعالى فقد تناوله الإسلام، ووضّح مايمكن توضيحه، سواء العقلي منه أم القلبي. وإن كان في إطار المعارف الفلسفية فقد أشار إلى ذلك بالمقدار الذي يمكن للعقول استيعابه. وتناول أيضاً المسائل الأخلاقية وبعبارة مختصرة وجميلة، وعلى شكل كلمات قصار كي يضعها في متناول البشرية؛ لتنهل من معينها.

فقد فتح الإسلام أبواب العلم في وجه طالبيه، معتبراً التفكّر في الظواهر الكونية وحقائق الطبيعة من لوازم الايمان.

وفي الجانب الاجتماعي ذكر الإسلام أُسس علم الاجتماع ودقائق أُموره بشكل متكامل، لم يخطر على ذهن البشرية، سواء التي عاشت قبل

الإسلام أو بعده. ومهما قالت الأجيال فلن يكون أرفع من ذلك.وهكذا الأمر بالنسبة للأُسس الاقتصادية التي أشار إليها الدين الإسلاميّ وحلّلها ونهج بها طريقاً لم تنهجه جميع المذاهب الاقتصادية وبتلك الدقة. وإذا تمكن مذهب من المذاهب إيجاد رتق في جانب من المجتمع فإنّه يقع في إشكالية إيجاد شروخ في جوانب أُخرى من المجتمع.

ويتحدث هذا الدين عن المعاد بطريقة تجعل المرء يعيش آخرته ومعاده في وقت يتأطر هو بإطار العالم الدنيوي...

ولسنا بحاجة إلى أن نملأ صفحات هذا الكتاب بما أورده الشرقيون والغربيون كشهادات على مانؤمن به من أنّ كل معرفة حقيقية ابدعتها أفكار الأفذاذ والعباقرة، وترتبط بالإنسان والعالم، إلّا ونجد جذورها في الدين الإسلاميّ. هذا، في حين أمضى الإسلام الحقائق المتعالية والخالدة التي نصّت عليها الأديان السماوية، أو العقول البشرية السليمة.

وأمّا الحقائق التي تحدثت عن معرفة الله أو الطبيعة أو المعرفة الإنسانيّة، نظماً كانت أو نثراً فلها أصل في الإسلام.

فحينما يستمع أحدكم إلى قصائد سعدي[1] سينشدّ إلى أفكاره الرفيعة.

فلو استثنينا غزليّاته وقصصه التي صاغها فسنجد أن المضامين الإنسانية والإلهية العالية التي يذكرها إنّما هي مستوحاة من القرآن والأحاديث

---

(١) سعدي الشيرازي (١٢١٣– ١٢٩٢م): أحد أكثر شعراء الفرس شعبية. كان متصوفاً، اضطره الغزو المغولي إلى التطواف في الأناضول وسوريا ومصر والعراق. أشهر أثاره: «بوستان»، أي «البستان» ، و«گلستان»أي «حديقة الورد». (موسوعة المورد).

الشريفة، أو الشعراء أو الحكماء السابقين الذين استوحوا كل ذلك من الإسلام كالمتنبي والشريف الرضي ومهيار الديلمي[١] و...

فعلى سبيل المثال، قيل بأن أروع ماكتب من أشعار في استقلاليّة الروح على المستوى الفردي أو الاجتماعي هو ما نظمه الطغرائي[٢] في لامية العجم المعروفة يقول:

وإنّما رجل الدنيا وواحدها

مَن لايعوّلُ في الدنيا على رجل

أو [كما ورد في الشعر الفارسي]:

أنا غلام لكل حرّ ظلّته السما ... من كل قيد طليق[٣]

وفي هذا الإطار ينبغي الإشارة إلى أن مضمون هذا البيت الشعري قد ورد مئات المرّات في الآيات القرآنية والروايات. وذلك حينما يؤمر

---

(١) مهيار الديلمي (توفي عام ١٠٣٧م): شاعر عربي عباسي، فارسي الأصل. كان مجوسياً فأسلم على يدي الشريف الرضي، وكان مهيار تلميذه في الأدب والشعر. عرف ببراعة الوصف والنسيب والفخر. (موسوعة المورد).

(٢) الحسين بن علي الطغرائي (١٠٦١- ١١٢١): شاعر وعالم عربي عباسي. أكثر شعره في الحماسة والفخر والغزل. و أكثر ما اشتهر به قصيدته اللامية التي مطلعها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل ... وحلية الفضل زانتني لدى العطل

وهي التي تعرف بـ«لامية العجم» تميزاً لها عن«لامية العرب» للشنفري. (موسوعة المورد).

(٣) غلام همّت آنم كه زير چرخ كبود- زهر چه رنگ تعلق پذيرد آزاد است

الإنسان بأن لايستعين أو يلجأ إلى أحد إلّا الله سبحانه وتعالى. وهناك شواهد أُخرى في هذا الإطار سنتناولها في البحث اللاحق، فإن كان هناك نقص أو خلل فيتحمّله السلف؛ لأنّهم كانوا ينظمون أو يدوّنون مفاهيم رفيعة، إلّا أنّهم لم يشيروا إلى أنّ هذا المفهوم قد استوحي من هذه الآية القرآنية أو تلك الرواية، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ اللغة المتداولة في إيران هي اللغة الفارسية، فالسامع بطبيعة الحال لم يكن على علم بما ورد من مفاهيم في الآيات إلّا ظاهر ألفاظها، أو الروايات التي كثر سماعها على المنابر وكانت تقرأ للبركة، ولذلك كان المستمع يظن أنّ جميع ما ورد من مواضيع في الأدب هي من إنشاء وإبداع الأدباء.[1]

ولذلك فقد كان المجتمع أكثر استئناساً بالشعر والأدب منه بالآيات والروايات، ولو أنّ هذا الصنف من الشعراء كان قد أشار إلى المصدر الرفيع الذي استوحى منه أشعاره، لما أورد هذا ثمة خلل فيما نظموه، بل سيجعل تلك الأبيات ممضاة من الله سبحانه وتعالى.

وقد كان لهذا الخطأ ضرران بالنسبة إلى المجتمعات الإسلاميّة:

الأول: إبعاد الناس عن مضامين الأيات والروايات بحيث أخذ الناس يظنون أن هذه المفاهيم السامية هي من الأمور التي خصّ الله بها الشعراء والحكماء دون غيرهم.

الثاني: أنّ هذه المفاهيم الرفيعة قد داخلها معانٍ خيالية ووهمية نسجتها

(١) المقصود هو السامع الإيراني؛ لأنه لايحسن اللغة العربية. [المترجم]

أذهان اولئك الشعراء والحكماء وتغلغلت في المجتمعات.

إنّ من رفعة الروح وارتباطها الوثيق بالعرفان الإيجابي بمكان أن يذكر الإنسان مصادر كلامه ومنابعها حينما ينتقل إلى معنى من المعاني قد تحدث عنه القرآن الكريم والروايات الشريفة.

وعلى كل حال فالمقصود من هذه الكلمات هو أنّ الإسلام لم يدع موضوعاً له تأثير ضروري على تكامل الإنسان إلّا وتطرّق إليه بشكل من الأشكال.

نعم، فالخدمة التي قدمها شعراؤنا وحكماؤنا في هذا الاطار هو أنهم ألبسوا تلك الحقائق لباس الاصطلاحات المحبّبة والفنّية، أو صاغوها على شكل قوافٍ تثير حماس عامة الناس وتحركهم بشكل سريع.

إنّ العرفان الإيجابي الذي جعلناه عنواناً لبحثنا هذا هو مدرسة، كان زعيمها المطلق الإمام علي بن أبي طالب وأبناءه المعصومين عليهم السلام، وذلك بعد رحيل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله إلى بارئه.

والذي دعانا إلى أن نصطلح على بحثنا عنوان العرفان الإيجابي هو: أنّ هذا النوع من العرفان قد أُطلق للنفوس على قدر وسعها الخوض في جميع مبادئ وعلل المعرفة الإلهية ومعرفة الصفات العالية للروح والسلوك المناسب لها، وكذلك التعرف على سائر الحقائق وحوادث عالم الوجود، بل أكّد على ضرورة البحث في تلك الأمور.

ففي هذا النمط من العرفان الحقيقي يكون الجانب الإيجابي للروح هو المنظور في هذه العملية، أي أنّ مايترتب عليه الأثر هنا هو الحقائق التي تنفذ إلى الروح إثر التوجيهات العقلية والإشراقات القلبية، فكل حقيقة أو

ظاهرة خارجة عن هذا البعد الإيجابي للروح تسمّى في العرفان الإيجابي خيالاً ووهماً وتجسيماً، فالعرفان الإيجابي لايرى سنخية بين القول بالعظمة الإلهية والقول بالطبيعة المعلقة التي لاعلة لها، ويعتبر الصفات العالية والكمالات ضرورية للنفوس فيما إذا كان قد تمّ تبليغها من قبل قادة التوحيد.

ويؤمن [العرفان الإيجابي] بأنّ السبيل الوحيد لنيل مقام القرب الإلهي إنّما هو انتهاج الأوامر التي أرشد إليها الأنبياء عليهم السلام، وأن جميع أفراد البشرية يمكنهم الوصول إلى الكمال الروحي والمقامات المعنوية، وحينما يوجّه مستمعيه إلى المبدأ الأعلى ينبّههم إلى حقيقة أنّ التجسيم القلبي لكل واسطة يعدّ شركاً، حتى لو كانت تلك الواسطة هي ذات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله .

إنّ النموذج المجسّد لأول وآخر مصداق للعرفان الإيجابي هو الإمام علي ابن ابي طالب عليه السلام، الذي كان يمتهن الزراعة ويغرس النخيل ويشقّ الأرض بمسحاة، فينثر البذور بيده لينصرف عندما يُعسعس الليل ليبدأ بمحاسبة نفسه، ثم يعرج صوب بارئه الأوحد ليعيش لحظات الفناء، منطلقاً في رحابه شوقاً للتقرب إليه وخشية من الابتعاد عن رحمته.

وباستثناء هذا المنهج العرفاني الإيجابي - والذي مرّ الحديث عنه من بداية هذا البحث وحتى الآن - فليس هناك منهج عرفانّي آخر قد ذكره الأئمة الاطهار عليهم السلام كبديل عن المنهج المذكور، والذي أطلقوا عليه اسم ما وراء الطبيعة. نعم، قد يكون هناك مسلك عرفانّي لكنه بطبيعة الحال ليس

سوى طريقة لإغفال الذات وتصريم العمر والتخدير. فحياة علي عليه السلام - رجل العرفان المجسّد- توضّح لنا حقيقة العرفان بشكل لا يشوبه الشك.

إنّ العرفان الإيجابي الذي يؤمن به الإمام علي عليه السلام يرى أنّ الإطراء على الذات تحت ذريعة الإطراء على الله هو عين الشرك، أفليس الجميع يتمتعون بعلاقة حقيقية مع الله تعالى؟!

وهناك حكاية قصيرة أرى من الضروري ذكرها هنا، فقد روي: أنّ أمير المؤمنين عليه السلام بعث إلى رجل بخمسة أوساق من تمر البغيبغية، وكان الرجل ممّن ترجى نوافله ويؤمل نائله ورفده، وكان لايسأل علياً ولاغيره شيئاً.

فقال رجل لأمير المؤمنين عليه السلام: والله ماسألك فلان شيئاً ! وقد كان يجزيه من الخمسة أوساق وسق واحد! فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: « **لا أكثر الله في المؤمنين ضربك ! أعطي أنا وتبخل أنت ! لله أنت ! إذا أنا لم أعطِ الذي يرجوني إلّا من بعد المسألة ، ثم أعطيه بعد المسألة ، فلم أُعطه إلّا ثمن ما أخذت منه، وذلك لأني عرضته أن يبذل لي وجهه الذي يعفّره في التراب لربي وربه عز وجل عند تعبده له وطلب حوائجه إليه**»[1].

والآن فكروا في القيمة العالمية لهذه الجملة لتكتشفوا قيمتها. فهذا هو العرفان الحقيقي الذي يذيق أبناء آدم عليه السلام طعم التكليف الحقيقي في

---

(١) جامع السعادات ، النراقي: ٢ / ٩٨.

مقابل الفرد والمجتمع.

وهذا هو العرفان الحقيقي الذي لو أرادت البشرية أن تستفيق من سباتها وتفكّر في إصلاح علاقتها بآحاد البشرية ومجتمعاتها وحكوماتها على جميع الأصعدة، فإنّها ستكون مضطرة لجعله منهجاً أساسياً وعمليّاً لحركتها.

فهذا هو العرفان الحقيقي الذي دعا إليه أعلام الهداية السماوية جميع الناس ووجّهوهم للسير في رحابه.

إنّ هذا العرفان هو ماينطلق به الإسلام عبر مايتمثل به من آيات قرآنية تقرع أسماع أبناء آدم الصمّاء آناء الليل وأثناء النهار ليقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾.

فالعرفان الإيجابي يعتبر الناس أعضاء لبعضهم الآخر، فيقول: إنّ على كل عضو من هذه الأعضاء أن يسعى بكل ما أُوتي من قوة كي يهب الأعضاء الأخرى الراحة والهناء، فهذا العرفان يقول: إن كان بإمكانك أن تحدّ من ألم متألم وتؤدّي حاجته ليلاً وأخّرت ذلك إلى النهار فلا تعدّ عارفاً.

فالعرفان الإيجابي يرى أهمّيّة أن يكون انتظام الأمور الهاجس الأوّل في حياتك، يقول: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾[1]، ويقول أيضاً: «من لا معاش له لا معاد له».

---

(١) الإسراء: ٧٢.

وورد عنه القول: «أُوصيكما وجميع ولدي وأهلي [بتقوى الله] ونظم أمركم وصلاح ذات بينكم»[١].

فالعرفان الإيجابي يؤمن بأنّ العقل والتفكّر في الوجود أصلان ضروريّان، ولذلك يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٢]

فالعرفان الإيجابي ليس حالة من الجهد الآنيّ الذي يقصد منه تفريغ الذات، في حين يبقى المرء أسيراً لمرديات الهوى، ومزلات النفس في بقية لحظات عمره، فلا يقوِّم حياة ضعيف، ولايدرك نظام الحياة الذي يعتبر بحدّ ذاته سبيلاً للتقرب الحقيقي. فهو يرى نفسه مستثنىً من أداء كل حق أو تكليف يقع على عاتقه. كلّا ، فالعرفان الإيجابي ليس على هذه الشاكلة.

العرفان الإيجابي يؤمن بأنّ الإنسان موجود تنطوي عليه أعظم الكائنات الوجودية، فلا يقف أمام سيره السلوكي نحو القرب الإلهي أيّ نوع من أنواع الدنس المادي والظاهري، فالموجودات بأجمعها لاترقى إلى حجم بعوضة في مقابل عظمة روحه، لكن ورغم ماذكر إلّا أنّه يرى أنّ تدبير نظام حياته العضويّ يعدّ أفضل طريقٍ لتصفية الباطن وإيصال عظمة

---

(١) شرح نهج البلاغة، محمد عبده: ٣ / ٧٦.

(٢) آل عمران: ١٩٠ – ١٩١.

الروح الى مستوى الفعلية.

ولذلك فالأصل المؤكّد في حقيقة العرفان الإيجابي هو التمعّن في عالم الكون والفساد، والاستفادة القصوى من الحقائق والظواهرالكونية كضرورات في طريق تكامل الإنسان.

إنّ سلوك المحبة في العرفان الإيجابي يعدّ عبادة لتنقية الروح من دنس الروابط المادية، فهي حقيقة دعا إليها الربّ المحبوب؛ لأنّ المحبة في العرفان الإيجابي تمتاز بالإخلاص لله الواحد فقط، فيما يكون الودّ في سائر العلاقات في حقيقة الأمر حباً لله، وذلك فيما إذا كان عنواناً من عناوين الطاعة لله فيما أمر به. فإنّك لو أحببت شخصاً فسترعاه وتسكّن من روعه لو أصابه مكروه ، وتعمل كلّ ما بوسعك من أجل إزالة الأشواك التي نفذت في جسده وآلمته، وتقوم بعيادته إن كان مريضا وتسكنّ عليه. وهذا كله ناشئ من محبّة الله سبحانه وتعالى، لأن الله يحاسبك يوم القيامة قائلاً: لِمَ لم تأتِ لعيادتي ؟ فتقول: ربّ وكيف تمرض ؟ فيقول الربّ: لقد مرض عبد من عبيدي فلم تذهب لعيادته. وقد ورد الكثير ممّا لايحصى من هذه المضامين عن الأنبياء وأئمة أهل البيت عليهم السلام.

فجميعنا على اطّلاعٍ تامٍّ بأن الله غني لايحتاج إلى من يقرضه، لكنه يقول في كتابه: «مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...».[1]

فالروابط والعلاقات الاجتماعية الجائزة تعتبر عين محبة الله، فهي إذاً من الأسس الثابتة في العرفان الإيجابي.

---

(١) البقرة: ٢٤٥.

وينبغي أن لايظن بأن مايحصل عليه العرفانيّون الحقيقيون من علاقة ورابطة بخالقهم هو نتاج للحب النفساني، بل هو نتاج للمحبة الروحانية، ولتوضيح المحبة الروحانية بشكل تفصيلي ينبغي ذكر مقدمة مختصرة:

العرفان والمحبّة الروحانية:

لقد واجهت كلمة العرفان الجميلة ما لاقته بعض الاصطلاحات الأخرى، حيث عانت من ظاهرة الغموض والإبهام؛ وذلك منذ الأزمان الغابرة. فقد سعى العلم والفلسفة في العثور على معنى حقيقي لبعض تلك الاصطلاحات، غير أنه بقي يتراوح مكانه دون تقدم، وذلك بعد بحث طويل ومجهد.

نعم، فهذا الاصطلاح تحوّل إلى [شبه] صنم ينحت كل ساعة بشكل من الأشكال، ويتقمّص في كلّ آن ثوباً متفاوتاً. وهذا الإشكال هو بالذات ما واجهته مفاهيم أُخرى كالأخلاق والعدل والتكليف أيضاً. ورغم ذلك فاصطلاح العرفان هو مصدر آخر من مصادر المعرفة، فالمعرفة تعني أن يكون العارف عارفاً.

العالم والعارف:

تُميّز العلوم الأدبية بين العارف والعالم بميزتين:

إحداهما: تعتبر أنّ المعرفة مسبوقة بالجهل، لكنّ العلم يمكن أن لايكون مسبوقاً بالجهل. ولذلك لايمكن أن يعبرّ عن الله جلّ شأنه بالعارف.

والأخرى هي أنّ المعرفة غالباً ما تستخدم في الجزئيات، ولكنّ العلم

يستخدم في الجزئيات والكلّيات...

ولكنّ الفلاسفة والحكماء المتأخرين (من ابن سينا وإلى اليوم) استخدموا المعرفة في معنى خاص؛ ليعبّروا عنه بتعبيرات مختلفة لايمكن لبحثنا هذا أن يحتويها بأسرها. هذا، ولكن ربّما أمكن أن نبيّن المعنى الشامل الذي يمكن أن يكون جامعاً مشتركاً، وهو كالتالي:

العارف: هو الشخص الذي ينقطع عن جميع العلائق ويصل في قربه الى مقام الربوبية الشامخ (وذلك بعد طيّ اسفار معيّنة وردت في كتب معيّنة) ويسمو هذا العارف في مقام القرب بشكل تدريجي حتى يصل إلى مرحلة ومقام يطلق عليه الفناء في الله أو مايعبّر عنه بمقام (هو هو بعينه)؛ وهذا المعنى وكما سنعرف لاحقا مما أتفق عليه العرفانيون، وذكروه ببيانات مختلفة سواء على شكل شعر أو نثر. وهنا يمكننا أن نسأل هل تبدأ مقدمات هذا المعنى من المحبة؟ أو من اللاثبوت عند سائر الموجودات أو من تجسّم الروح أو الوهم، وهذا ما ينبغي أن يبحث في مباحث العرفان السلبي [الدخيل] بشكل تفصيلي.

فالعرفان بمعنى من المعاني لايمكن أن يكون له معارض، فأيّ إنسان عاقل يبتعد عن المعرفة وينكرها. نعم، ينبغي أن ندقّق في هذا المعنى بشكل جديّ كي لايتحول إلى مقدمة للوقوع في الوهم والخيال الباطل، وهذا العرفان والمعرفة الحقيقية هي المقدمة الوحيدة لإيصال الإنسان إلى منتهى مراحل التكامل الممكن والتي يعبرّ عنها بالعرفان الإيجابي.

فالله سبحانه وتعالى يوضّح العرفان لآحاد البشرية بالشكل التالي:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾[١].

المحبة في الوجود الإنساني:

تبدو في الوجود الإنسانيّ محبّتان، وهما:

١- المحبة النفسانيّة: وهي المحبّة التي يعود منشؤها إلى محبوبيّة أوصاف المحبوب في نظر من تكون تلك الأوصاف ملائمة لميوله النفسيّة.

٢ - المحبّة الروحانية: وهي المحبّة الناتجة عن وجود كمال في المحبوب، وهذا الكمال المفترض يتلائم وروح الشخص الذي يميل إلى ادراك هذا الكمال، ومثاله كمال العلم، وحب العلم حبّ روحاني وحبّ المال والجمال والذات حبّ نفساني.

والحب الذي يلعب دوراً أساسياً في العرفان الإيجابي هو الحب الروحاني، لأنّ طرف الحب أو المحبوب في العرفان الإيجابي هو الإله الكامل المطلق الذي لايمكن أن نتصوّر النقص في وجوده، أو الوجود الذي يعبر عنه بعض الحكماء بالكمال فوق التمام، والتمام فوق الكمال. فالمحبة النفسانية محبة تنحو صوب الفناء، في حين يعتبر موضوع المحبة الروحانية أمراً خالداً ، فلو شئت أن تحب اقرأ لك شعراً:

كل صورة خلابة تجذب عينيك إليها إنما يريد فلكها أن يختطف عينيك من بعيد

فانحُ بقلبك نحو من كان في كيان الوجود دوماً معك وسيبقى

---

(١) آل عمران: ٣١.

معك[١]

إنّ المحبّة الروحانية لاتعدو أن تكون لحناً غير موزون لدى من ابتلي بالعشق النفساني. والعكس هو الصحيح بالنسبة للروحانيين، فهم ينظرون الى المحبّة النفسانية عكس ما ينظر اليها هواتها، وذلك كعشق الطير الذي أُودع خلف القضبان فهو يبعث بحبه لمن يهواه من بين نوافذ ذلك القفص، في حين هو غافل عن أن (نوافذ القفص ليست نوافذ حرية وخلاص). ولذلك فالحديث عن المحبة الروحانية في محضر الأشرار ظلم [يقول الشاعر]:

أيّتها المحبة الروحانية إنّ مدحك عند السجناء أمر مقيت [لذلك] سأذكرك في محفل الروحانيين[٢]

فالمحبة النفسانية متغيرّة بتغيرّ موضوعها، فإن نَحَت صوب الكمال فلابد وأنها ستقلع عن ذلك يوماً ما. ولكن المحبّة الروحانية حينما تبدأ مقننة بالقوانين العقليّة والقلبية فستكون غير متناهية في سيرها نحو الكمال. فلو كان ميل الروح نحو المحبة الروحانية فإنها ستقول: يارب،

شممت عطرك من زهرة آدم، فطويت المسافات وصولاً لحَيّك.

كل ما أنفقته في مسيرك هو لك، لم يبق [لي] سوى نفسي وهي

---

(١) هر صورت دلكش كه ترا روى نمود خواهد فلكش ز دور چشم تو ربود
رو دل به كسى نه كه در اطوار وجو د بوده إست هميشه و خواهد بود.

(٢) مدح تو حيف است با زندانيان گويم اندر محفل روحانيان.

نفسك [ملكك][١].

وإن كانت الروح منقادة بمقود المحبة النفسانية فإنّها ستقول أخيراً أيّها الكون:

في فترة من فترات الصبا رافقنا أُستاذاً، فغمرتنا الفرحة حينما صرنا أساتذة.

فاستمع ما حلّ بنا في نهاية المطاف، انتفضنا من التراب فانتثرنا في الهواء[٢].

فمن تذوّق حلاوة العرفان الإيجابي، وعثر على المحبّة الخالدة سيكون سعيداً للغاية من المجيء والذهاب لأنّ لسان حاله يقول:

نُطلّ وننظر ونصير ماءً كالحبيبات قاصدين زيارة سيمائه[٣].

وبطبيعة الحال فإن الآخر لو لم يفصح بلسانه فسيحمل معه المعنى التالي إلى القبر:

كل من أقبل يحمل همّ إعمار العالم رحل أخيراً منطوياً على نفسه كالزوبعة بعد أن نال حظّه من التراب زمناً[٤].

---

(١) از گـل آدم شنيـدم بوى تـو راهـها پيـموده ام تاكوى تـو

در ره تو هرچه دادم زان تست مانده جان باقى وآنهم جان تست

(٢) يك چند بكودكى باستاد شديم يك چند باستادى خود شديم

پايان سخن شنو كه ما را چه رسيد از خاك بر آمديم و بر باد شديم

(٣) حباب وار براى زيارت رخ او سرى كشيم ونگاهى كنيم و آب شويم.

(٤) هر كس آمد درغم آباد جهان چون گردباد روزگارى خاك خورد آخربهم پيچيد ورفت.

هذا هو معنى المحبّة في العرفان الإيجابي، والذي تعتبر من أُولى علائمه الانصياع لما يريده المحبوب الأزلي والأبدي، فالعرفان الأصيل أن تنطلق «لاحول ولاقوة الّا بالله»من أعماق القلب. فلاحول ولاقوة الّا بالله هذه تجعل قائلها مسلّماً لامر الله ونهيه ليكون مظهراً في وجوده لها في نهاية المطاف أي عندما يؤدي الصلاة يقول الله أكبر وبذلك يبقى على إستعداد حتّى لحظة تخضّبه بدمه في محراب العبادة. ففي العرفان الإيجابي تمحي لاحول ولاقوة الّا بالله «الانا» من كلّ مايعيشه العارف، فـ«أنا» أفعل كذا أو «أنا » فعلت كذا ... كلها كلمات فارغة لامعنى لها (وذلك في غير الأفعال الاختيارية التي يكون فيها المدار هو التكليف) لأن العارف يعلم [وكما يقول الشاعر]:

ما لم تُفنِ كلّ مايجول في إطار ذاتك فليس بوسعك أبداً أن ترى جمال أحدٍ [ما][1]

فالعارف الإيجابي: «**قد أحيى علقه، وأمات نفسه، حتى دقّ جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق، فأبانّ له الطريق وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه**»[2].

---

(١) برباد فنا تا ندهى گرد خودى را   هرگز نتوان ديد جمال احدى را

(٢) شرح نهج البلاغة، محمد عبده: ٢ / ٢٠٤.

«يا أبا ذّر، إنك غضبت لله فارجُ مَن غضبت له، إنّ القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، ... لايؤنسك إلّا الحق ولايوحشنّك إلّا الباطل»[1].

وختاماً نقدّم أحد أجمل الروائع الفنية النادرة في العرفان الإيجابي، وهي اللوحة التي صاغها الإمام الحسين بن علي عليه السلام في يوم عرفة، حيث وقف يناجي ربه ليقول:

«... إلَهي أنَا الْفَقيرُ في غنَايَ فَكَيْفَ لاَ أكُونُ فَقيراً في فَقْرِي؟ إلَهي أنَا الْجَاهلُ في علْمي فَكَيْفَ لاَ أكُونُ جَهُولاً في جَهْلي؟ إلَهي إنَّ اخْتلاَفَ تَدْبيركَ وَ سُرْعَةَ طوَاء مَقَاديركَ مَنَعَا عبَادَكَ الْعَارفينَ بكَ عَن السُّكُون إلَى عَطَاء وَ الْيَأس منْكَ في بَلاَء.

إلَهي، منّي مَا يَليقُ بلُؤْمي، وَ منْكَ مَا يَليقُ بكَرَمكَ. إلَهي، وَصَفْتَ نَفْسَكَ باللُّطْف وَ الرَّأفَة لي قَبْلَ وُجُود ضَعْفي، أفَتَمْنَعُني منْهُمَا بَعْدَ وُجُود ضَعْفي، إلَهي، إنْ ظَهَرَت الْمَحَاسنُ منّي فَبفَضْلكَ وَ لَكَ الْمنَّةُ عَلَيَ، وَإنْ ظَهَرَت الْمَسَاوي منّي فَبعَدْلكَ وَ لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَ. إلَهي، كَيْفَ تَكلُني وَ قَدْ تَكَفَّلْتَ لي (توكّلت)؟ وَ كَيْفَ أضَامُ وَ أنْتَ النَّاصرُ لي؟ أمْ كَيْفَ أخيبُ وَ أنْتَ الْحَفيُّ بي؟ هَا أنَا أتَوَسَّلُ إلَيْكَ بفَقْري إلَيْكَ وَ كَيْفَ أتَوَسَّلُ إلَيْكَ بمَا هُوَ مَحَالٌ أنْ يَصلَ إلَيْكَ؟ أمْ كَيْفَ أشْكُو إلَيْكَ حَالي وَ هُوَ لاَ يَخْفَى عَلَيْكَ؟ أمْ كَيْفَ أتَرْجمُ

---

(١) المصدر السابق:٢ /١٢.

بِمَقَالِي وَ هُوَ مِنْكَ بَرَزَ إِلَيْكَ؟ أَمْ كَيْفَ تُخَيِّبُ آمَالِي وَ هِيَ قَدْ وَفَدَتْ إِلَيْكَ، أَمْ كَيْفَ لاَ تُحْسِنُ أَحْوَالِي وَ بِكَ قَامَتْ.

إِلَهِي، مَا أَلْطَفَكَ بِي مَعَ عَظِيمِ جَهْلِي! وَ مَا أَرْحَمَكَ بِي مَعَ قَبِيحِ فِعْلِي! إِلَهِي، مَا أَقْرَبَكَ مِنِّي وَ أَبْعَدَنِي عَنْكَ! وَ مَا أَرْأَفَكَ بِي فَمَا الَّذِي يَحْجُبُنِي عَنْكَ! إِلَهِي، عَلِمْتُ بِاخْتِلاَفِ الْآثَارِ وَ تَنَقُّلاَتِ الْأَطْوَارِ أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى لاَ أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ.

إِلَهِي، كُلَّمَا أَخْرَسَنِي لُؤْمِي أَنْطَقَنِي كَرَمُكَ، وَ كُلَّمَا آيَسَتْنِي أَوْصَافِي أَطْمَعَتْنِي مِنَنُكَ.

إِلَهِي، مَنْ كَانَتْ مَحَاسِنُهُ مَسَاوِيَ فَكَيْفَ لاَ تَكُونُ مَسَاوِيهِ مَسَاوِيَ؟ وَ مَنْ كَانَتْ حَقَائِقُهُ دَعَاوِيَ فَكَيْفَ لاَ تَكُونُ دَعَاوِيهِ دَعَاوِيَ؟ إِلَهِي حُكْمُكَ النَّافِذُ وَ مَشِيَّتُكَ الْقَاهِرَةُ لَمْ يَتْرُكَا لِذِي مَقَالٍ مَقَالاً، وَ لاَ لِذِي حَالٍ حَالاً.

إِلَهِي كَمْ مِنْ طَاعَةٍ بَنَيْتُهَا وَ حَالَةٍ شَيَّدْتُهَا هَدَمَ اعْتِمَادِي عَلَيْهَا عَدْلُكَ، بَلْ أَقَالَنِي مِنْهَا فَضْلُكَ. إِلَهِي، إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي وَ إِنْ لَمْ تَدُمِ الطَّاعَةُ مِنِّي فِعْلاً جَزْماً فَقَدْ دَامَتْ مَحَبَّةً وَ عَزْماً...».

الإمام عليّ عليه السلام وحقيقة الموت

المقدمة

وتشمل البحوث التالية :

١ – مدى علميّة البحث عن الموت في العلوم والفلسفة.

٢- إطلالة على ظاهرة الحياة وحقيقتها.

٣- إطلالة على الموت من خلال الإدراكات العامة (الموت ملتقى النظريات المتناقضة).

٤- ماقبل الموت وما بعده.

٥- سلوى أبيقور بالنسبة لـ «رزيّة العُقبى».

٦- رزيّة الموت وفادحة ما بعد الموت.

علي و الموت:

لكي نتناول بالبحث معادلة الحياة والموت في نظرة الإمام علي عليه السلام الواقعيّة، لابد أن نتطرق إلى عدّة نقاط كمقدمة:

١- مدى علميّة البحث عن الموت في العلوم والفلسفة:

إنّ من الضروري في هذه المقدمة والتي تتناول موضوع علميّة البحث عن

الموت في العلوم والفلسفة، الإشارة إلى قانونين مختصرين ومهمين للغاية:

الأول: إنّ معرفة كل حقيقة من الحقائق بالنسبة للعالِم أو الفيلسوف، لاتكون معرفة صحيحة وكاملة إلّا إذا بُحث المفهوم المقابل لهذه الحقيقة بوضوح. فقد قيل منذ القدم: «لايمكن أن تعرف الأشياء إلّا بمعرفة أضدادها» وقد تحولت هذه العبارة إلى حقيقة، تُصدّقها إدراكاتنا ومعارفنا. بل يمكن القول واستناداً لعلم المعرفة [الإبستمولوجي]: إنّ حتمية هذه المسألة تزداد في كل يوم من الناحية العلميّة والفلسفيّة، وهي تطرح اليوم كقضية قطعية ضمن قانون «صراع الأضداد».

إذن واستناداً لما ورد في هذا القانون فإنّ المعرفة الحقيقيّة للموت مرتبطة بمعرفة حقيقة الحياة. نعم، المعرفة الإجمالية لاتحتاج إلى اتّضاح المفهوم المقابل لها. أضف لذلك أنّ مدى علميّة كل موضوع وقانون في إطار الفلسفة والعلوم مرتبط بمدى ثبوت القانون أو الموضوع جزماً أو اطمئناناً أو احتمالاً. فكلّ حقيقة تصل علمياً أو فلسفيّاً إلى أعلى درجات الإثبات، ستكون علميّة وثابتة بشكل كامل.

الثاني: وفي المقابل لو لم تصل الفرضيّة إلى درجة الاثبات والقطعية فسوف تكون واضحة جزئياً؛ أي أنّ معرفتنا لها ستكون بالمقدار الذي تمكنا فيه من إثباتها، فقد ثبت في عصرنا الحديث- مثلاً- أنّ الماء مكون من الأوكسجين والهيدروجين، ويعد هذا التركيب حقيقة ثابتة وقطعية. ومعنى ذلك هو أننا لو جعلنا رقماً معيناً كدرجة أقصى لاثبات قطعية كل حقيقة كالمائة فإنّ القضية القطعية والثابتة لابد وأن تصل إلى مائة بالمائة.

ولكن رابطة عدم الحتمية [الضرورة][١]، قضية غير قطعية الثبوت، وتعد درجة إثباتها بالنسبة إلى الحد الأعلى من الاثبات والقطعية، مثلاً خمسة بالمائة.

وبعد اتضاح هاتين المسألتين نقول: إنّ حقيقة الموت هي إحدى هذه الظواهر. ولهذا تُعدّ هذه المسألة- ولسببين- غير ثابتة وليست قطعية من المنظار المعرفي للعلوم والفلسفة، ولم تصل إلى درجة المائة لتكون حقيقة قطعية:

السبب الأوّل: أنّ الجهل بحقيقة الحياة هو الذي أدّى إلى غموض حقيقة الموت، ولتوضيح هذه الجملة ينبغي أن نُطلّ على ظاهرة الموت وحقيقتها:

٢- إطلالة على ظاهرة الحياة وحقيقتها:

لقد كُلّلت الجهود و المساعي الشاقة التي بذلت في مجالات مختلفة من علم الأحياء في القرون الأخيرة إلى توصّل البشرية لأكثر من عشر نظريّات فيما يرتبط بظاهرة الموت وحقيقته. وقد تناولها العلماء بالدرجة الأولى، ودقق فيها الفلاسفة بالدرجة الثانية، ويمكن القول هنا بأنّ كُلّ نظرية من هذه النظريات والبحوث كانت قد تمّت بمنظار يختلف عن الآخر . فجميعنا نعلم أن القدرة الآبية عن المقاومة للقوانين الميكانيكيّة بالمعنى الأعم، اقتضت أن يذهب العلماء إلى أنّ الظواهر الفيزياوية مسائل ميكانيكية بسيطة. فظهور النتيجة- كما هو معلوم- يتوقّف على العامل الطبيعي .

---

(١) Indeterminism.

فعلى سبيل المثال يقال : إنّ خاصيّة الخلية تستوجب الظاهرة المعينة كذا، أو إن المادة الصمغية تقتضي في حالة الانفراد نشاطاً معيناً وفي حالة الاجتماع نشاطاً آخر. فاستنارتنا العلمية في هذا الحدود تكون لافتةً للنظر وتمنع من أن يسجن موضوع الحياة في سجن الخيال .

ولكن الملاحظة الأهم التي شغلت الذهن البشري في البحث عن حلول لها هي: هل تُحقق هذه الاستنارة العلمية كل أهدافنا و آمالنا العلمية والفلسفية الواقعية بالنسبة لظاهرة الحياة و حقيقتها، أوْلا؟

ولو فرض ذلك فما الذي دعا أمثال هنري برغسون [١] والذي لا تختلف قدراته الفكرية والكمية عن أمثال لوب أن يُنظِّر للحياة و حقائقها بمنظار القواعد الفلسفيّة الشاملة والمُطوّلة ، وربما ركن إلى الشعر حين يداهمه التعب؟

فتعيين مكونات الحياة ونشاطها وكيفيّة خواصها ، تُشبه تعيين مكوّنات المخ ونشاطه وخواصه. نعم فلا أحد يُنكر حقيقة أنّ مكونات المخ عبارة عن الشحم والأعصاب المختلفة الأشكال والأنسجة الدقيقة. كما أنّ من الواضح أن كلاً من [القوى] الحافظة والتخيّلات والإرادة والتفكير لها مراكز مادية معيّنة . ولكن ورغم هذا الوضوح فليس بالإمكان أن نرضخ

---

(١) هنري برغسون (١٨٥٩ - ١٩٤١): فيلسوف فرنسي. قال بأن في العالم المادي قوة كامنة تعمل على تطوير جميع الكائنات. وقد دعا هذه االقوة «دفعة الحياة» أشهر آثاره: «التطور الخلاق». منح جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩٢٧. (موسوعة المورد).

لتفسير وتحليل القوى النفسانيّة بالقوانين الميكانيكية والفيزياوية.

نعم، لو فرضنا أن مكوّن الحياة هو المادة الصمغية أو الكلوئيد، لكن كيف يمكن لنا أن نبرّر ونُبرهن على ما ينبعث من غرائز تناسلية أو انفعالات عاطفية والعشرات من أمثال هذه المعاني في تلك المكوّنات التي مرّ ذكرها؟

حسناً، فالمخُّ هو مركز الذاكرة لدى الإنسان، ولكن لايمكن تفسير الآلاف من الحوادث المتناقضة التي تجتمع في مركز مادي خلال فترة الحياة من خلال القوانين الفيزياوية والتشخيص العضوي، ولا يمكن القول بأنّ علماء الفيزولوجيا غفلوا عن هذه النكتة، وأنهم كعلماء النفس قد أدركوا هذه الحقيقة، وهي: أن المكونات الحسيّة للحياة من قبيل الخلايا تُحدثُ نتاجاً لا يمتّ للمادة بصلة. في حين أن هؤلاء يكتفون ويقتنعون بالجملة المعروفه القائلة بأنّ «خواص الحياة كيفيات ناتجة عن الكميّات»، ولا نختلف نحن وإيّاهم في أنّ أيّ عصر سيشهد تحولاً لهذه الجملة من كونها نظرية فلسفية إلى إثباتها كقاعدة رياضية وفيزياوية فسيتّضحُ في ذلك العصر معنى الحياة وسيحلُّ لغزها. كما أن من المؤسف أن يبقى معنى هذه الجملة في إطار المفهوم الفلسفي على الرغم من تدوينها في كتب الفيزياء.

ولو أردنا أن نوضّح الأمر بمثال يوضح هذه المسألة المستعصية، فيمكننا أن نبيّن ذلك بمثال لأجزاء لوحة حيث يُوضّح كل جزءٍ منها طبيعة مادية معينة، من قبيل نهر وأشجار مزدهرة وعشب بديع وأُمور أُخرى ...

فاجتماع هذه المكوّنات المادية يُظهرُ كيفيّة بهيجة ومؤنسة، هذا في حين لا يمكن أن نختبر هذه اللوحة بالاختبارات الكميّة، ولا يمكن أن نوضّحها بالقوانين المادية. نعم، هناك ثمّة اختلاف بين اللوحة المذكورة والحياة في عملية التحوّل من الكمّ الى الكيف، في أن الأمرالمهم في إدراك الكيفيّة بالنسبة لهذه اللوحة يرتبط بإحساسنا، وأما في حقيقة الحياة فهناك ظاهرة قائمة في نفسها هي الكيفيّة، لها تحقق خارجي. يعني أنّ هذه الموجودات تتميّز بالميل نحو البقاء والتناسل والعاطفة والإحساس والإرادة، بل ويمتاز بعضها- كالإنسان- بالرغبة في التجسيد والرغبة في الجمال والتفكّر والاختيار، وهذه كلها كيفيّات تتميّز بواقعية خارجية. ومع الالتفات لمضامين الجمل السابقة والإيمان بأنّ مكوّنات الحياة هي حقائق ينبثق عنها ظواهر لا تُحدّ بحدود الكم لذلك تثبت لنا نظرية علماء الطبيعة [البايولوجيا]، وخصوصاً علماء الفيزياء و الأحياء الذين يزعمون بأنّ حدود البحث لا تتجاوز وقائع الحياة وتتوقف عند تشريح الوقائع المحسوسة، وأنّ معلوماتنا بالنسبة للحقائق العلميّة والفلسفية المتعالية تبقى محدودة وقاصرة؛ فنحن ورغم كوننا نعيش في النصف الثاني من القرن العشرين إلّا أننا حينما نتذكر الشعراء الفلاسفة ندرك حقيقة كوننا لم نتجاوز المقدمات البدائية للحياة، يقول أبو العلاء [المَعرّي]:

الـذي حارت البـريّـة فيـه   حيوان مستحدث من جَمادِ

السبب الثاني: لو فرض أننا تعرفنا على حقيقة الحياة، ولم تبق لدينا أيّ ملاحظة في هذا الأمر ، وتمكّنا- نتيجة ذلك- من التعرف على الموت

وبيانه على شكل معادلات رياضيّة، وقلنا: الموت هو عدم الحياة فعند ذلك سنواجه مسألة أكثر تعقيداً من الموت، وهي السؤال عن أسرار وعاقبة ما بعد الموت . وهذه الجملة بحاجة إلى تفصيل سيأتي في المباحث اللاحقة.

٣- إطلالة على الموت من خلال الإدراكات العامة (الموت ملتقى النظريات المتناقضة).

ليس هناك مفكر يصاب بالوجل خلال قراءته للنظريات المتناقضة حول الموت، كما لو يشاهد حالة الموت ذاتها، وليس غريباً أن يصاب بالذعر والرهبة فالحقّ معه في ذلك، إذ هل يمكن لشخصٍ أن يرى بأُمّ عينه انهيار الحياة وبؤسها في مواجهة الموت المخيف ولايفقد إدراكه الطبيعي؟

فمن المؤسف أن يعمد علماء الدنيا حين عجزهم عن تفسير حقيقة الموت من خلال القوانين الفيزياوية إلى [ذكر] معادلات فلسفية زائفة لاتقوم على أساس. كما أنّ من البديهي أن المعادلات بهذا الحجم الهائل لم توفّق أيضاً في تحقيق روح البحث عن الحقيقة، ولذلك رأينا هؤلاء يعمدون إلى حلّ لغز المسألة باستخدام تجسيدات صورية وأبيات شعريّة بديعة .

هناك قانون عام يقول: إنّ كل موضوع علمي وفلسفيّ عندما يكون بمنأى عن الحواس والمنطق والعقل، سيؤدي الى أن يقوم كل فرد بصياغة صور حدسيّة وفقاً لرؤاه الخاصة. فلم يعد أحد من أُولئك الذين عبروا غابة الموت الساحرة ، ليوضّح الحقائق التي شاهدها بلغة متعارفة؛ ولذلك تبرز هذه الحقيقة المرموزة عند من يعتبرها نهاية المطاف بصورة قبيحة ومرعبة.

وفي المقابل يعتبر الموت بالنسبة إلى من أدرك حقيقة الدنيا وطالع عللها ونتائجها ممرّ وهو أوّل فصل من فصول الحصاد في مزرعة بذرها وتحمّل المشاقّ العسيرة في إنمائها وتربيتها، فالموت من وجهة نظر هؤلاء يتجلى بشكل جميل ومطمئن. وعلى أساس هذا المنطق الواضح فإن المثوى بعد الموت أو تحت التراب الداكن، يبدو كأنه سجن مظلم بالنسبة الى الصنف الأول، أي أُولئك الذين يعتقدون بأن الموت نهاية الحياة فهم يُقادون اليه بسياط النيران الملتهبة، وعلى العكس فهو للصنف الثاني مرقد يحفّه الجلال والهناء والعظمة.

إنّ هذه الجمل والعبارات حقائق تدركها أفكار البشرية عامة- صغاراً وكباراً – بالوجدان والفطرة دون حاجة لشيء آخر، ويبقى الخيار لي ولك في أن ندعها في جملةٍ فلسفيةٍ أو أخلاقيةٍ، أو ضمن قوافٍ شعريّة.

وبما أنّ الحديث عن الموت يوجِدُ حالة من الانكسار والانهيار الروحي. من هنا يمكن تدارك هذا الانكسار من خلال مطالعة هذه الجمل على صورة شعر، يقول [جلال الدين] الرومي[1]:

يا بنيّ، إنّ الممات يتلوَّن بتلوّن كل شخص، فعلى العدو عدواً وعلى

---

(١) جلال الدين الرومي (١٢٠٧- ١٢٧٣ م.): شاعر فارسي متصوف. يعتبر أحد أعظم شعراء الحب الإلهي. أنشأ طريقة صوفية خا صة عرفت بـ(الطريقة المولوية). أشهر آثاره ديوان (مثنوي) الذي كان له أثر عظيم في الفكر والأدب الصوفين عند المسلمين. (موسوعة المورد). وقد ألف العلامة الجعفري رحمه الله كتاباً في تفسير ونقد هذا الديوان(٢٥مجلداً) [المترجم] ..

الصـديق صديـقاً

فيـا مـن يخـشى الموت ويفـرُّ منه فـراراً إنك تخشى ذاتك، فتأمـل أيهـا الحبيب وادرك الامر حقّاً

فالقبيح هو قبحُ وجهك، لا مظهر الموت، فنـفسـك كـشجـرة والمـوت كالـورق.

فـإن كنـت تعاني مـن شـوكة فقـد غرسـتها بـذاتك، وإن كنـت تتمتـع بالحرير والخز فأنت نسجتها[بيدك][1]

أو كما قال آخر :

«عش كما لو دعوك للمشاركة في جمع كثير مـن القوافـل التـي تـسير نحو إقليم مجهول، ليحطَّ كل واحد منها رحال السفر ويختار غرفة خاصـة بنفسه في محطة الموت المظلمة، كي يـستقر فـي منـزل هنـاك . فـلا تكـن كعبدٍ يُساق إلى زنزانة مظلمة، بل عليك أن تكون كمن يـسير بأقـدام ثابتـة وبإرادة وعزم صلب نحو محل إقامتـه الخالـد؛ ليفتـرش الأرض بردائـه ثـم يدخل تحت هذا الرداء، ويطبق جفنيه بانتظار منام يُكلّل بـالأحلام الكثيـرة والهانئة، ويبقى في هذا المنزل العظيم بانتظار اللقاء النهائي ليوم الجزاء».

---

(١) مرگ هر يك اى پسر هم رنگ اوست پيش دشمن دشمن و بر دوست دوست
أى كـه ميترسى ز مرگ انـدر فرار آن ز خود ترسانى أى جان هوش دار
روى زشت توست نى رخسار مرگ جان تو همچون درخت و مرگ برگ
گر بخارى خسته اى خود كشته اى ور حـرير و قـز درى خود رشته اى.

٤- ما قبل الموت وما بعد الموت .

لقد وظّف موريس ماترلينك[١] ومفكرون آخرون أقلامهم بجدّيّة وشوق كبيرين، وسوّدوا صفحات الكتب من أجل تحديد ملامح الموت وتصوير حقيقته، لكنّ القارئ لتلك الصفحات لا يجد فيها شرحاً يمكن اعتباره جديراً بالاهتمام. فما جادت به أفكارهم لم يتعدّ حدود ما قبل الموت وبعد الموت. فلو مثّلنا للموت بدهليز الدار وقبل الموت بالزُّقاق وبعد الموت بفناء الدار ، فيمكننا القول بأنّ هؤلاء المفكّرين أضحوا كمن قفز من الزُّقاق إلى فناء الدار دون أن يمرّ بالدهليز. نعم، فمن لم ير العنقاء يصوّرها حسب ما تنسجه أفكاره.

ونحن لا نزعم هنا أن بحثَي ما قبل الموت وما بعده مسائل لاجدوى فيها ولا أهمية لها، بل نرى عكس ذلك، فهما مهمّان للغاية، كما سنبين و نؤكد على أنّ أسرار ما بعد الموت أهم من نفس الموت ، لكننا نقول هنا: رغم أنّ هؤلاء العلماء قد زعموا أنّهم شرحوا وبيّنوا [حقائق] الموت إلّا أنهم عجزوا عن إثباته. ومن هنا تتجلى القيمة العلميّة والفلسفيّة لهذه الجملة المختصرة لبطل الحياة والموت الأوحد عليه السلام [حين يقول] :

«كم اطّردت الايام في البحث عن مكنون هذا الامر [حقيقة الموت]

---

(١) موريس ماترلينك (١٨٦٢- ١٩٤٩): شاعر وكاتب مسرحي بلجيكي. يعتبر أحد أبرز أركان المدرسة الرمزية في المسرح. منح جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩١١. من أشهر آثاره مسرحية «العصفور الأزرق» ، ودراسة فلسفية بعنوان «حياة النحل». (موسوعة المورد).

فأبى الله إلّا إخفاءه، هيهات، علم مخزون».[1]

٥- سلوى أبيقور[2] بالنسبة لـ «رزيّة العُقبى».

يعيش أبيقور وأقرانه ماضيَّهم وحاضرهم كما تعيش الماشطة التي تزيّن العروس لعريسها لكنها لا تنتفع من ذلك [التزيين]. فأبيقور وأقرانه يخطُون ويوشمون للموت وشمة جميلة، ويكشفون عن الآدميين غمام الخوف والوجل الذي يترقبونه ساعة الفراق عن الحياة.

كان أبيقور يزعم قائلاً: لماذا الخشية من الموت ؟

فالخشية من الموت لا تعدو أن تكون فكرة صبيانيّة، فما دام هناك إحساس وشعور فلا وجود للموت، وما أن يحلّ الموت حتى ينعدم الإحساس و الشعور. ولعلّ الهدف الذي دعا أبيقور الى إنشاد المصرع الشعري في إطار فلسفي هو ترك الباب موصداً للفرار من الإحساس والوجوب والعذاب وأداء المسؤولية، وهو أشبهُ شيءٍ بترنيمة ذلك الصبي الذي يدسّ رؤوس أصابعه في أذنيه بقوة وينطلق عدواً في الليل المظلم وهو يتنفس الصعداء ويغني ولعله يقرا من باب المصادفة هذا الشعر :

---

(١) شرح نهج البلاغة، لابن ابي الحديد: ٣٣/٢.

(٢) أبيقور (٣٤١- ٢٧٠ق.م): فيلسوف يوناني. مؤسس الأبيقورية. قال بأن المتعة (أو السعادة) هي غاية. اعتبر الإدراك الحسي أساس المعرفة الأوحد. وقال بأن الأشياء المادية تطلق على نحو موصول صوراً ذرّية تنطبع على حواسنا. لم يبق من آثاره الكثيرة غير نتف متناثرة. (موسوعة المورد).

أنا الفيل [القوي] المزمجر، وأنا الأسد المحرّر، اسمي بَهرام كور وكنيتي بوجبلة [1].

ولو أردنا أن نتحدث بجدية أكبر فبالإمكان أن نضرب المثال التالي، ونقول: إنّ العبارة المذكورة التي أوردها أبيقور تشبه المرح والرقص الصبياني الذي يمارسه اليوم رجال في سنيّ الخمسينات والستينات في شرق الأرض وغربها ، وهو بطبيعة الحال يتنافى ومقتضى طبيعتهم، ولايهدف لشيء سوى تأخير خريف الشيخوخة ولو لأيام معدودة. وقد يلتفت بعض هؤلاء إلى أن ما يفعلونه لايعدو اصطناعاً وتمثيلاً لاينبغي لهم فعله، فيخجلون مما فعلوا عند إدراك هذه الحقيقة.

نعم لعلّنا نعثر على إنسان يدرك ويتعرف على لغز العقبى ورزيّة ما بعد الموت، اعتماداً على جملة أبيقور المختصرة من دون أن ينظر في حقيقة الحياة، فأنا شخصيّاً أجهل وجود مثل هذا الإنسان، ولكن إن وجد إنسان بهذه المواصفات في التاريخ البشري وأمكن تحويل عبارة أبيقور من حكاية فلسفية إلى معادلة تجريبية يمكن إثباتها، وأمكن للكتّاب أن يصوّروا الموت بصورة جديدة فإنّ ما يمكن الوصول اليه من حقيقة يعيشها أبيقور من دون أدنى ترديد هي: أنّ أبيقور الفيلسوف كان يمشي بهناء في غابة جميلة، وحينما كانت الأشجار والأزهار والحيوانات والبشر

---

(١) بهرام الخامس ملك فارس الساساني (٤٢٠– ٤٣٨م). اشتهر بالفروسية وحب الصيد. ورد ذكره في بعض رباعيات عمر الخيام، (موسوعة المورد). [كما جاء في هذا البيت]:

منم آن پيل دمان ومنم آن شير يله نام من بهرام گور وكنيتم بوجبله.

يبتسمون اليه، وكانت أُذناه و لسانه وقلبه وعقله وكبده و ذاكرته وإرادته تؤدي أعمالها بشكل طبيعي ، فإنّه تفوّه بتلك الأبيات الشعريّة وهو من قبيل مايقال : « إن ما يجري في العين نوم، وما يجري في المجرى ماء» وهكذا انقدحت الأبيات في مخيّلة أبيقور، وتمكن من خلالها أن يحلّ أعقد الألغاز خفاءً في تاريخ البشرية!

فهل عهدتم إنساناً عاقلاً يزعم أن الإحساس يجتمع مع الموت ؟ وهل عهدتم إنسانا يمتلك شعوراً فيقول: إنّ الحركة تجتمع مع السكون، لنجيبه قائلين: كلا ! فالحركة لا تجتمع مع السكون. ولكن من جانب آخر لا يمكننا أن نقول أيضاً: إنّ أبيقور- الفيلسوف المعروف- قد ذكر العبارة المذكورة والتي تُعدّ من أوضح الواضحات، دون علة أو مبرر. وعند التأمل الدقيق في المنهج الفلسفي الذي يطرحه أبيقور والأبيقوريّون يمكن أن نكتشف من ذلك أنّ الرجل وكغيره كان قلقاً ووجلاً لما يشاهده من عظمة في هذا العالم الرحب الذي يبرق و ميضه للجميع من ثقوب جدار الموت.

«نعم، فايّ سُؤدد باسلٍ لا يربض مُنهاراً عندما يقف أمام بريق الجانب الآخر للجدار ؟ وأيُّ شهم هُمام لا تسمع دقات قلبه عندما يتصوّر أنّ ارتباطه بالحياة قد انهار، وها هو يمرُّ في دهليز الموت المرعب».

وفي جهة أُخرى ينحصر الحلُّ والتوجيه لهذا المنظر المرعب بمنهجين:

الأول: الإيمان العقلاني الذي اختاره أهل الملّة في العالم البشري،

وذلك تبعاً لقادة ماوراء الطبيعة (الأنبياء عليهم السلام).

الثاني: غضّ الطرف عن ذلك المشهد، واعتماد أمثال الجمل المذكورة لسلوى النفس حين التفكير بالموت وما بعد الموت، وهي الحقائق التي تعذّب مشاعر المفكرين كافة.

ويختار أبيقور المنهج الثاني، ولا يرى ضرورةً للتأمين على الحياة الأخرى.

والأدهى مما ذكره أبيقور من توضيح للواضحات ما تفوّه به بعض أدعياء الفلسفة، حيث يقول: لماذا تقحم ذهنك معاناة التفكير في حقيقة الموت ؟ فها أنا ذا أختصرَ لك جميع الأسرار في جملة واحدة: «الحياة هي اتصال الروح بالبدن، والموت هو انفصال الروح عن البدن»!

وللجواب نقول: وهل هناك منكر لهذا المعنى؟ فلو لم تدعم هذه الجملة المعنى المذكور لانتحر أبناء البشرية بمجرد التفكير في مَعادهم!

وفي مقابل هذه المزاعم يكفي أن يقال: ينبغي أن نستشعر في المرحلة الأولى حقيقة الحياة والروح، وذلك في تحليلنا لظاهرة الموت التي عقّدت في مستنقع الاصطلاحات.

وعلى كل حال سواءً استشعر أبناء آدم، وحملوا الأمر على محمل الجدّ أم تعاملوا معه بهزل فهناك أمران غاية في الأهميّة بالنسبة للَغز المآل والعُقبى قد شغلتا إدراك ومشاعر الأحياء، وهما : ١- رزيّة الموت. ٢- فادحة ما بعد الموت.

٦- رزيّة الموت وفادحة ما بعد الموت:

١- يبذل العضو الحيّ كل ما بوسعه للحفاظ على حياته، فالجراحات والأمراض [التي يصاب بها] لاتتلاءم وإرادة الحياة، حتّى وإن كانت قصيرة الأمد؛ ولذلك ففي مواضع النزاع بين العضو الحيّ والجراحات والأمراض الروحية فإن «الأنا» أو «الأنسجة العصبيّة» ستعيش الأذى والألم، وسيؤدي الأمر في نهاية المطاف إلى أن يعيش الجسدُ ألماً شاملاً يستوعب كافة أعضائه الحيويّة، حتّى يصل الأمر بالمريض أن يتمنّى في بعض الأحيان الموت والفناء، بل يُقدِم في مواقع على الانتحار، ولذلك يطرأ هنا السوال التالي القائل:

هل يعاني المرء ويتألم حينما ينهش الموت جميع جوارحه الظاهرية والباطنية، وعندما تموت أعضائه الحيوية الواحدة تلو الأخرى، أوْ لا؟

يقول بعض الكتّاب الماضين والمعاصرين : صحيح أن سكرات الموت تعني نزاع الحركة والسكون، وهي بطبيعة الحال تبدل الحركة إلى السكون، وتعني شموليّة المعاناة والآلام، ولكنّ مدة هذا الأمر قصيرة لا تتجاوز الساعات أو الدقائق المحدودة. أنا لم أجد جملة أبيقور هذه، ولكن من المفيد أن أُدوّن هذه العبارة كتعليق على كلامه:

لقد نتج التوهم من عدم التأمل والتفكير الصحيح، فهذا الرجل الساذج يحسب أنّ إدراكات ومشاعر من أخذت كفّ الموت القويّة بزمام حياتة كإدراكات ذلك الفيلسوف أو غير الفيلسوف من عوامّ الناس الذين يعيشون ساعة اللذّة يحددون بكل هدوء للدقيقة والساعة واليوم والشهر معنى خاص.

ومن الواضح أن الواقع ليس هكذا، فإدراكات الإنسان وحواسّه تختلّ إثر وصول الحياة إلى نهايتها ، فالدقيقة والساعة وغيرها من الأمور التي تُحدّ بحدود الزمن تخرج من حالتها الطبيعية لتتحول إلى حالة تمتدّ امتداداً غير محدود. نعم، فأنا وأنت حين نشاهد من بعيد مشهدَ الموت نظنُّ أنّ الشخص قد مات خلال عشرة دقائق أو ستين دقيقة، ومن ثمّ تجاوز دهليز الموت.

وهذه الحقيقة لا تختلف عمّا يذكره عدد كبير من علماء الفيزياء في زماننا المعاصر، فهم يقولون:

تنتج في أثناء سكراتَ الموت حركة ورعشة معيّنة، تترافق مع انبعاث مقدار من الطاقة في الأعصاب الدماغية. وفي مثل هذه الحالة تحدث ذبذبات مختلفة في الدماغ، وهي تكشف عن إبراز الذاكرة وإظهارها لما تختزنه من الحوادث المكنونة فيها، وأغلب الظنّ أنّ العبارة التالية لأمير المؤمنين عليه السلام تشير إلى هذا المعنى، يقول عليه السلام: «يفكّر فيمَ أفنى عمره، وفيمَ أذهب دهره؟»[1].

فاجتماع مئات الآلاف من الحوادث خلال عدة دقائق لا تنسجم والحسابات المتعارفة أبداً. فهذه إذاً المسألة الأولى التي شغلت أفكار البشرية.

٢- فادحة ما بعد الموت ... سؤال يراود البشرية بأسرها دون استثناء: هل ستتبدل هذه الحياة الغضّة إلى سكون وفناء موحش؟

هل يمتدّ هذا الفناء إلى ما لا نهاية، أو أن هذه الحياة ستعود بعد فنائها

---

(١) شرح نهج البلاغه ، محمد عبده: ١ / ٢١٢.

إلى حياةٍ جديدةٍ وخالدةٍ كما كانت عدماً فتحوّلت إلى وجود؟ نعم، [يقول الشاعر]:

ضع الشراب في كوزٍ أو جرّةٍ أو قدح ،كي لا يضيع كفّ ترابٍ في هذه الحانة[١].

رغم أنّ السكون والموت الأبدي أمر لا وجود له ، لكن يالها من صورة شاعرية ومذهلة! صورة مجمع التراب الداكن وقد زالت عنه كلّ آثار التشخيص والتميز. فحينما تأخذ قبضة من التراب لا تجد فرقاً بين قلب سقراط العادل وبين مخّ جنكيز و نيرون السفّاح، ولا تجد ما يميّز جمجمة جمشيد وإسكندر وكيكاوس عن فَكِّ رجل كادح امتهن قلع الأشواك وبيعها في زمن من الأزمنة.

فكيف يمكن أن يتصور هذا الإنسان بعيونه الخاملة ووجناته المتورّدة وجوارحه اللطيفة وملذّاتة التي لم تقف عند حدٍّ، بل و سطوته على ملايين البشر، أن لا تتأثر هذه الشمس وتنطمس، وكذا القمر والنجوم بموته وتبقى متحرّكة ومنيرة كما هي عليه، في حين تحولت العيون الخاملة والوجه المتورّد والجوارح اللطيفة إلى حفنة من التراب الداكن أو تكلّست وتحوّلت إلى صخرة صمّاء؟ فها هي جذور الأشواك تتشعب في جوفه وتتأصل في أحشائه، ثم تتلاشى بعد فترة من الزمن تحت وطأة محراث القرية الذي يستخدمه صبي كادح.

---

(١) يا سبو يا خم مى يا قدح باده كنند يك كف خاك در اين ميكده ضائع نشود

وها هي النباتات والأشواك السامّة تتخذ من تلك الجمجمة الشامخة [يوماً ما] موضعاً للنمو. وهاهي اليوم وقد ملأها التراب، فأحدثت منظراً مؤلماً يبعث الأسى في مشاهديه، ومنتجعاً وملاذاً لديدان الأرض وأفاعيها.

وحينما يعسعس الليل يتعاطف المحيط الأزرق مع تلك الجمجمة الخاوية ليطلق جفنيه فيبكيها بدموع قد تطفي نيرانها المسجّرة منذ آلاف السنين.

ومن المتيقن أنّ نهاية ومآل عاشق الدنيّة لاينتهي عند هذا الحد. فالصبي القروي الكادح يحتاج إلى من يحرس مزرعته الصغيرة مجاناً، فيقوم بإفراغ التراب المتراكم في تلك الجمجمة بكل قسوة عندما يولج عصاه الصلبة في فرجة العين أو الفم أو الأُذن ثم يرفعها إلى الأعلى ويديرها كالمجمرة بيده لينصبها في مزرعته كحارس مجاني.

وهنا تبدأ الجمجمة التي رافقت الكثير من الحوادث بامتهان حرفتين جديدتين:

الأولى: حراسة المزرعة[كفزّاعة].

والثانية: مشاهدة الفضاء الرحب الذي أمسى شاهداً لحوادث الدهور الغابرة مع الثريا.

هذا إذن مشهد الرحلة التي ينطلق فيها جميع أبناء البشرية حين يرحلون بمقطورة تصفر بصفير الزمن. إنه مركب الزمن الذي يسير بسرعة البرق ليحمل أبناء آدم عبر الأزمنة والعصور، شباباً يافعين وآخرين حَنت الأيام ظهورهم، بسطاء ومفكرين، أقوياء وبائسين، فلاسفة وعلماء وأنبياء و أُناساً

عادين حملهم أجمعين إلى منزل الخلود الذي يمرُّ من تحت التراب الداكن.

ولو كان أبناء آدم على يقين بأن مسألة العقبى والنهاية تختم عند هذا لهان الأمر بالنسبة اليهم، ولما سبب ذلك قلقاً أو أذى، لأن الجميع سيرون تلك المشاهد في المستقبل دون شك، فيقولون عند ذلك:

يدفن بعضنا بعضاً فيمشي   أواخِرنا على هام الأوال

[ويقولون]:

حينما غادرت نفسي ونفسك النقيتين جسديهما، وُضِعَت لبنتين على عمقي وعمقك.

ثُم من أجل أن تُعدّ لبنة لقبر الآخرين ، وضعوا في قالبِ ترابي وترابك[١].

لكنه ورغم هذا ينحني عاجزاً ومستسلماً عن الإجابة على سؤالين:

الأوّل: لماذا يخشى منكرو ما وراء الموت، رغم مايطرحونه من سلوى، انهيار الحياة وفنائها؟

الثاني: ماهو الدليل القطعي الذي أرشدكم إلى القول بأن الإنسان محدود بين الفترة التي تستمر من الحالة الجنينيّة والى الفترة التي تحدُّ بحدود الموت الموحش.

---

(١) از تن چو برفت جان باك من وتو   خشتى دو نهند بر مغاك من وتو

وآنگاه براى خشت گور دگران   دركالبدى كشند خاك من وتو

ولو كان لديكم دليل مبرهن فلماذا لاتوضّحوه إلى جميع البشر، كي يخلدوا الى العيش الهانئ وينتفي عنهم القلق بالنسبة لمصير الحياة الأُخرى، كما تمتعتم أنتم بالهناء والراحة؟!

فكم كان مناسباً أن يفيق بعض المفكرين يوماً عن إبداء السلوى المؤقتة المحدودة بحدود الآراء الفلسفية التي يتداولونها عند بحوثهم الفلسفية المحضة، ظنّاً منهم أنّ ذلك سينسي الناس التفكير في رزيّة الموت وفداحة ما بعد الموت، وليعودوا إلى تفكير أكثر دقة وفائدة، وذلك للتمهيد لطريق آمن عقلائي لأبناء البشرية.

الموت من منظار الإمام عليٍّ عليه السلام:

بعد أن ذكرنا المقدمات أعلاه ينبغي أن نتعرف على رأي الإمام عليٍّ عليه السلام الثاقب، لنكتشف السرّ الذي دعاه إلى عدم التفريق بين الموت والحياة.

فلو تأملنا ولو بشكل بسيط في مفهوم الحياة عند الإمام علي عليه السلام، لأمكن أن يتضح لنا السرّ الذي دعا الإمام علياً عليه السلام أن يرحّب بالموت ويشعر باللذّة والهناء في اللحظات التي كان يفارق فيها الدينا.

فلنقرأ كلمات بطل الموت والحياة:

١- «فوالله ما أُبالي أدخلت إلى الموت أو خرج الموت إليّ»[1].

٢- «فوالله ما فجئني من الموت وارد كرهته»[1].

---

(١) شرح نهج البلاغة، محمد عبده: ١/ ١٠٤.

٣- «والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أُمّه»[٢].

٤-وحينما أُصيب بالسيف الذي كان سبباً لوداعه الدنيا قال:

«فُزتُ وربِّ الكعبة»[٣].

ويقول: «لست أبالي اوقعت على الموت أو وقع الموت عليّ»[٤].

نعم، فاللوحة الفنّية التي تقع تحت يد الرسّام المبدع مستسلمة؛ لايختلف الأمر بالنسبة اليها في أن تمرّ فرشاة الألوان على أجزائها أو تمرّ هي على الفرشاة، فهذا النموذج الأسمى هو أئمة التوحيد عليهم السلام، فقد استسلموا لرسّام الحياة كاللوحة بين يدي الرسّام، فلم يختلف الأمر بالنسبة لعليٍّ عليه السلام في أن تمرّ فرشاة الموت عليه أو يسير هو إليها.

نعم، فعليّ عليه السلام لايهاب رزيّة الموت وفادحة ما بعد الموت.

يقول عليه السلام: «مافجئني من الموت وارد كرهته». إن الموت لم يكشف لعليٍّ عليه السلام شيئاً جديداً.

فمن الطبيعي- وكما أوردنا سابقاً- أن لايجهل العارف بحقائق الحياة ولوازمها، ومن بانت له خفاياها ولم تعد هناك نكتة مبهمة بالنسبة إليه،

---

(١) المصدر السابق: ٣ / ٢١٠.

(٢) المصدر السابق: ١ / ٤١٠.

(٣) غاية المرام: ٥/ ١٩٦.

(٤) أورد المؤلف الرواية بهذا الشكل، وبعد التدقيق في جملة من المصادر وجدتها على الشكل التالي: «ما أُبالي وقعت في الموت أو وقع الموت عليّ». (شرح إحقاق الحق، للمرعشي: ٨ /٤٠٠. [المترجم]

فالموت لن يحمل له شيئاً جديداً.

إنّ من جملة القوانين العامة التي صدّقتها المعارف البشرية هي: أنّ التعرف الكامل على حقيقةٍ يكشف النقاب عمّا يقابلها، بل يمكن القول: إننا لو أردنا أن نتوصل إلى معرفة كاملة بالنسبة لإحدى هاتين الحقيقتين فلا بدّ وأن نتعرف بشكل كامل على الحقيقة الأخرى.

إنّ المتأمل الذي يطلّ على حياة الإمام عليٍّ عليه السلام بشمولية وإنصاف سيُدرك دون أدنى شكٍّ صدق الإمام عليٍّ عليه السلام في مدّعاه.

لقد أُطلقت الآلاف من الانتقادات والإشكالات على سيرة الإمام علي عليه السلام، سواء في المدة التي سبقت خلافته أم ما بعدها، بل في جميع القرون الطويلة من قبل عبيد السلطة، والحيوانات الإنسية لإخفاء عيوبهم وفضائحهم، ولكنّهم لم يتمكنوا من تقديم دليل واضح لإثبات أن علياً قام بعمل فردي أو اجتماعي وفقاً لهواه، أو أنه وقع في خطأ ما.

نعم، مَن الذي يمكنه أن يصل إلى مقامٍ سامٍ ورفيعٍ باستحقاقٍ في عالم ينقّبُ ويبحثُ عن كل شاردة وواردة؟ فهل يمكن القول[إذً]، بأنّ علياً عليه السلام لم يكن يدرك معنى الحياة؟!

لقد عرف الإمام علي عليه السلام حقيقة الحياة، ولم يكن يخشى الموت أبداً.

ويمكن بيان هذه الحقيقة بشكل آخر تقتضيه أحاسيسنا ومشاعرنا:

إنّه الحذر في مجتمع السكر، وهو الذي يفكر بالمجتمع وسط عبيد الذات والأشخاص، ومَن يعلم أنّ النفع المادي وشأنيّة كل فرد من أفراد

المجتمع منوط بالعمل وإيجاد النتائج، وهو الرجل الواعي الذي كان يعيش في محيط بغيظ سَلبت فيه ظاهرة صراع المصالح وقمع الضعفاء وانتهاك حقوقهم مبادئ الأسس الإنسانية؟

نعم، هذا ما جعل علياً عليه السلام لايخشى رزيّة الموت وفادحة ما بعد الموت.

ويقول أيضاً:«واللهِ لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أُمّه». فمن النادر أن تجد دعوى كهذه مقرونة بالدليل، بل يسبق الدليل إلى الذهن وببيان ذوقي أصل الدعوى.

إنّ تأريخ البشرية ورغم نحته لآلاف التماثيل والأصنام التافهة التي يقدِّمها للبشرية، لكن هذا التاريخ المخزي الذي سلب الآلاف من الحقوق، وأوجد فوضى عارمة لاتستند إلى برهان، إلّا انه لم يتمكن من إنكار العلاقة الأصيلة بين قرّة عين إبراهيم عليه السلام وبارئه سبحانه وتعالى.

فمنذ ما يقرب من الألف و أربعمائة سنة ومكبِّرات صوت التاريخ تهتف دون حجاب لتقول: إنّ علياً عليه السلام لم يبالغ في دعوى الحب الإلهي. ضعوا هذه الدعوى في كفٍّ وتاريخ حياة الإمام عليٍّ الناصع في الكفّ الأخرى وقارنوا بين الاثنين.

فما دام بين الإمام علي عليه السلام وربّه علاقة حبٍّ فلم لايتمنّى لقاء بارئه المتعال ليلاً ونهاراً.

سل كتاب الله وسيجيبك: إن المحبّ لابدّ وأن يتمّنى لقاء حبيبه ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا

الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

لماذا لايكون الموت أعذب إلى الإمام علي عليه السلام من ثدي الأُمّ إلى الرضيع؟ فهو لايعشق الحياة المليئة بالأكدار كما يعشق الجنين بطن أُمّه.

لقد أدرك علي عليه السلام بفطرته السليمة النقيّة أنّ الموت يعني انفتاح أبواب السرمدية.

فالموت يعني الخلاص من قيود المادة المظلمة. نعم، فالمُزارِع الذي نثر البذور ورعى الزرع في الموسم ولم يتهاون في أداء واجباته لماذا لاينتظر الحصاد؟ ولِمَ لا يفرح حينما يتذكّر البيادر وهي أمام عينيه؟

أوليست أيّام الحياة بالنسبة للإنسان هي فصل نثرٍ للبذور؟

ألم يحن فصل الحصاد بمجرد أن يموت الانسان؟

نعم، فلعليٍّ عليه السلام الحقّ في أن لايخشى رزيّة الموت وفادحة ما بعد الموت.

فلماذا لا يستقبل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الموت كما يستقبل ضيفاً عزيزاً ينتظره سنينَ طويلة، وذلك حينما يصاب بجرح عميق، في وقتٍ كانت ترنّ في أسماعه وقلبه صرخات البائسين في أقصى بقاع حُكمه، وتحوّل سعة الحياة الدنيا إلى زنزانة قُيّدت فيها يداه ورجلاه بمقابض من حديد؟ فالحياة تعدُّ مريرة للغاية عند العادل المطلق حين يشهد سلب خلخال فتاةٍ ظلماً في إقليمٍ من أقاليم دولته، حتى وإن كانت

---

(١) الجمعة: ٦.

الفتاة لاتُدين بدين الإسلام!

فإذا كان للتسليم المحض أمام العدل، واحتقار المال والنفس والأقربين والسلطة قيمة، وكما كان يظهر من علي عليه السلام في سلوكه، وإن كانت الخشية والوجل من أبسط الظلامات بالنسبة للموجودات الحيّة كما يذكر الإمام علي عليه السلام ويقول:« **والله لو أُعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملةٍ أسلبها جُلب شعيرة ما فعلت**»، فحقيقة العدل الخالدة أن يقال: «علي لايخشى رزيّة الموت وفادحة ما بعد الموت».

ويعلن التاريخ المخزي لأبناء آدم عليه السلام وبكل صراحة قائلاً: الخزي لأبناء آدم الذين يخجل حتى الفضاء الرحب ونجومه أجمع، ويطأطئ رأسه حياء مما فعلوه في حروبهم ونزاعاتهم. فقد وصل أبناء البشرية حداً في الافتراس والعدوانية، ودثر القيم الإنسانية حداً في معاركهم مرحلة تأبى حتى وحوش البراري والغابات من القيام بفعله والوقوع في معتركه.

فحينما يرى العدو أنّ القضاء على خصمه بالنار هو أسرع من القضاء عليه بالماء فهل يتريّث ليقتله بالماء؟ طبعاً لا، كما أنّ من الطبيعي أن لا يعمد الإنسان إلى استخدام السلاح إذا كان القتل بالماء أو الظمأ أهون وأسرع فتكاً، فهو يُقدّم سلاح الماء على سلاح الحرب. ولكنّ التاريخ البشري ينقل صوراً تختلف كلّ الاختلاف عن هذه المنهجية التي تعارفت عليها البشرية، فهاهُم أئمة التوحيد عليهم السلام ونموذجهم العملي شبل ابن أبي طالب عليه السلام يُستثنون من هذه القاعدة.

هلمّوا اقرأوا التاريخ الصحيح وسترون سيرة الإمام علي عليه السلام في الحياة:

في إحدى المعارك في حرب صفين هيمن معاوية- المتلبس بلباس الآدميّنِ- على نهر الفرات، فمنع جيش الإمام علي عليه السلام من الوصول إلى الماء ليقتلهم عطشاً دون حاجة إلى السلاح والقتال الطويل. فأمر الإمام علي عليه السلام جيوشه بالهجوم على ناحية الفرات، فسيطروا عليه دون خسائر تذكر. وهنا همّ أصحاب الإمام علي عليه السلام أن يفعلوا مثل ما فعله أعداؤهم.

لكنه عليه السلام أبى أن تُطمس القيم الإنسانية في ثنايا الحرب والقتال، ولذلك فتح المجال لأعدائه، ودعاهم للارتواء من الماء، رافضاً وبشدّة مطالب أنصاره بمنعهم عن الماء. ولم يذكر تاريخ البشرية أن يداً حملت الحسام في حدود نصف قرنٍ ولم تُرَق قطرة دمٍ ظلماً وجوراً، إلّا كفّ شبل ابن أبي طالب عليه السلام.

فهذا التاريخ الذي كان شاهداً على حياة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يهتف بصوت عالٍ: « إنّ علياً عليه السلام لايخشى رزيّة الموت ولا فادحة ما بعد الموت».

فالموت الذي لابد أن تخشاه المجتمعات في منطق علي بن أبي طالب عليه السلام هو موت الوجدان والفطرة.

لأن الفرد أو المجتمع الذي يحصر قيمة الحياة في تكديس الثروة والأمر والنهي- مثل هذا الفرد أو الاجتماع- سيتّجه لا محالة وبسرعة البرق صوب الانقراض والانهيار. فالفرد أو المجتمع الذي يموت فيه الوجدان والفطرة سيندثر فيه الإحساس بالتكليف وأسس ومبادئ الإنسانية التي

تميّزه عن البهائم، وتهبه العلم والفلسفة والأخلاق والدين، وسيحلّ محلّها صراع البقاء وسحق البائسين والفقراء.

ومن جانبٍ آخر فإنّ هذه الدنيا القديمة العهد تطرح مقابل كل قوي من هو أكثر قوة، ومقابل كل قبضة قبضة أشدُّ بطشاً، حيث ينتهي المطاف بكلّ واحد منهم إلى العدم والفناء وذلك بيد الآخر. فهذا هو الموت الذي يخشاه الجميع، ولابدّ لهم أن يخشوه. لكنّه الشخصيّة الوحيدة التي كانت تتمتع بالحياة وتؤكد دائماً ضرورة التكليف لأبناء آدم، وتعتبر نفسها الضحية المذعنة للقانون (مع العلم بأن القصاص قبل الجناية أمر مرفوض). فهو وإن لم يذكر شيئا عن الموت أبداً، إلّا أنّه كان يُطلق صوته مدوّياً لأبناء الدنيا؛ ليتحدث لهم عن الحقيقة المقدّسة والخالدة للتكاليف، فيقول:«إنّ علياً لايخشى رزيّة الموت ولا فادحة ما بعد الموت».

فهل من الممكن لأحدٍ أن يهاب الموت ولايؤاخذ من يهمّ بقتله وهو يعلم بأن القاتل سيفعل ذلك؟

ألم يكن بإمكان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام مع ما له من قدرة وسلطة، أن يُحرّف القوانين وفق رغبات أدعياء الانسانية، وأن يطهّر الأرض من صنم بذيٍّ ومجرم كعبد الرحمن بن ملجم؟!

فلو أنّ الخوف من الموت كان قد نفذ إلى قلب الإمام عليٍّ عليه السلام ولو بمقدار بسيط لما كان يخرج في منتصف الليل دون سلاح بين عسكره الذي كان يتأثر بمطامع المآدب الفاخرة والأموال الطائلة وسيادة لها الأمر والنهي. فلقد كان هذا الوجود الفريد يُطلُّ مراتٍ عديدةً في اليوم الواحد،

ليلتقي صرح الموت مطمئن الخاطر والبال؛ بل كان يجعل الموت يصاب بالذهول ويهتف كما هتفت الحياة: «إنّ علياً لايخشى رزيّة الموت ولافادحة ما بعد الموت».

وأخيراً فإن ذلك الرجل الزاهد والمقتدر في نفس الوقت، ومن كان يستحي كثرة الرقع في لباسه رغم كونه حاكماً مطلقاً، وينظر إلى الناس في حياته بعين واحدة، فلم يميّز بين قوي وضعيف. أضف لذلك حسامه الذي برق في مقدمة الجبهات، وخُضّب في الحروب بدماء المجرمين والبغاة، وفي حوادث مختلفة إلّا أنه لم يُرِق قطرة دم ظلماً، ولم يتأثر خلال هذه المدة الطويلة بمنطق الثأر والإنتقام اللذين يسلبان الإنسان إنسانيّته.

ولم يغفل الإمام علي عليه السلام حتى حين كان يعيش لحظات الموت إثر جُرحه العميق أن يُطعم قاتله ويمنع أبناءَه من ثورة الثأر لمقتله.

وحين كان يهمّ بعبور دهليز الموت والانتقال إلى العالم الآخر، قام بنزع تلك الملابس المرقّعة ليستدبلها بأكفان بسيطة كلباس الإحرام، كي يوضع جسده تحت التراب، فينطلق إلى رحاب ربّه.

فهل من قلق يؤلم علياً ويؤذيه؟

قسماً بعظمة الله إنّ ذلك اللباس والسيف والإنسان الذي أوصله الإمام علي عليه السلام لهذه المكانة، وهكذا القلب الرؤوف المحب، بل وحتى قاتله المجرم وكفنه البسيط، يشهدون جميعاً وبصدق:

«إنّ علياً عليه السلام لايخشى رزيّة الموت، ولا فادحة ما بعد الموت»

منتصف الليلة التي سُقي فيها ماء الحياة:

ها هي الشمس ولساعات قليلة تودّع الخيمة الزرقاء، والليل يسدل ستاره على الجبال والسهول والأشجار الخضراء والأكواخ المتواضعة والقصور الشاهقة، بل وعلى كلّ الموجودات الحيّة التي تعدُّ نفسها لسبات تلك الليلة. فلقد كانت النجوم تنتشر وكعادتها في رحاب السماء بطمأنينة خاصة، وهي ترمق أبناء البشريّة بطرفها، وتبتسم ابتسامة مرموزة لما تراه من جهدٍ شاقٍّ وعملٍ عسيرٍ يؤيّده هؤلاء؛ فالمزارعون عادوا للتوّ إلى أكواخهم المتواضعة، وأصوات القوافل بدأت تعدُّ الأرقام، لتخمد بعد ذلك شيئاً فشيئاً، بل وحتى العُشّاق قد تعبوا من جولاتهم في عالم الخيال وها هم يستسلمون للنوم والسُبات. رغم هذا فستائر الماديّات المظلمة كانت بعيدة عن عينَي الإمام عليٍّ عليه السلام، وها هي ساعات الثورة الروحية عند علي عليه السلام تتوقّد وتُطلّ، فساعةً يحاسب نفسه فيها، وساعةً يجول في صحارى الكوفة يتفكّر فيها، وفي ساعةٍ ثالثةٍ يمرُّ على أحياء اليتامى والأرامل والبائسين لينظر هل استسلموا للنوم بطمأنينة كما ينام الآخرون؟

وتارةً يقف عند باب مسجد الكوفة وجداره، فيبكي بحسراته الحزينة الباب والجدار.

وساعةً يقف وللحظات محدودة ليغلق عينيه اللتين لايشاهدان إلّا الحقيقة، كي لا ينشدّ إلى المجرمين، وذلك بعد أن يسمع أنين جوارحه المتألّمة والمنهكة.

فما زالت العيون والآذان وقلوب الموجودات الحية من البشر والدوابّ

والطيور والديدان تغطّ في نومها العميق، لكن قلب عليّ عليه السلام الذي كان يعيش الصحوة الأبدية، بدأ يمرر بيده على العيون الناعسة كي تفيق لترنيمة مناجاة السحر.

وهكذا كانت أجفان عليٍّ عليه السلام تعود إلى مزرعة الدنيا. أنا الآن أسير مع القوافل التي بدأت تتجاوز هذا المربط القديم، لتبسط فراشها في إحدى مواقف الطريق المظلم، فيا أيّتها الخيمة البيضاء الناصعة؛ وأنت أيّتها المحدودبة الزرقاء، لم تبكِ بنجومك اللامتناهية قطرة دمع، ولم تتأملي عودتهم، فلك الحقُّ في ذلك، لأن كل ما دوّنتيه عن هذا الإنسان لايمكنك النظر إليه دون حياء.

والآن دوّني في مذكّراتكِ الطويلة، كي لا ينسب الآخرون جرائمهم إليك، فأقدامي التي أنقلها الآن وأسير نحو حضرة التكليف دوّنيها في سجلّك القديم؛ لأكون أبيض الوجه، نقي الجانب، وارسمي آخر نبل أُطلقه في الدفاع عن التكليف في لوحتك الملّونة.

ما عساني أن أفعل؟ فلقد انتهت فرصتي في قراءة الكتاب الذي كان في حوزتي حول حقيقة الإنسان.

نعم، فما إن فتحت أوّل صفحة من ذلك الكتاب، وبدأت أتلوه على أبناء البشرية وإذا بسفر حياتي يغلق وينتهي:

لقد خطف وميض الغيب نفسي وحرّرها، فعرجت روحي تاركة

جسدي كطائر إلى عالم اللامحدود[١].

لقد زفّت بعض طيور الأوزّ المسافر الذي رافقته أفئدة الأبرار من أبناء البشرية إلى باب الدار.

ولم تكتفِ هذه الحيوانات بالأنين وحسب، بل كانت تتهيّج كل ما اهتزت الرقع التي وصل بها ثيابه بنسيم السحر. ولم يكن يسمع من أبواب وجدران الطريق آخر تحية وداعٍ وحسب، بل كانت السماء قلقة كئيبة على ما يحلُّ بعلي عليه السلام، وهي الشاهدة التي لم تتأثر بمليارات الحوادث، ولم تَنحنِ لها. وكان الإمام علي عليه السلام ينظر اليها محدّقاً.

لقد كان من المذهل أن يقوم نسيم الصبا- وكأن الجبال والوديان والغابات والنجوم تغفو لإطلالته- في تلك الليلة بمناغمة جوارح الإمام علي عليه السلام المتألمة، ظنّاً منه أنّ ذلك سيُلقي على عيونه النعاس، فتغمض أجفانه وينام قلبه النيّر، ليطلع الفجر الصادق. لكن هيهات وياله من ظن باطل:

ألم يعلم نسيم الصبا أن علياً لم تغفُ له عين [يقول الشاعر]:

فالفجر شقّ الآفاق إلى الصدر، لكنّه لم يجد عين عليٍّ قد رقدت[٢].

فلم لايألف علي بن ابي طالب عليه السلام سواد الليل، في حين ذاق طعم ماء

---

(١) دگرم بوارق غيب جان زقيود كرده مجردا طيران مرغ زحدّ تن دگرم بلا حدّا

(٢) فجر تاسينه آفاق شكافت چشم بيدار على خفته نيافت

أو كما قال السيد حيدر الحلي:

[وسل الأنجم هل أبصرنه ليلة مضطجعاً فوق الوساد]

الحياة وقت السحر في ليلة دامسة مظلمة. ففي تلك الليلة نهض علي عليه السلام من فراشه وأسبغ وضوءه كعادته في كل ليلة، ثم شدّ وسطه بحيازيمه التي صنعها من ألياف النخيل ليبدأ رحلته الخالدة. ثم راح يخطو خطوات تفاوتت عن خطواته في الليالي الماضية، فحيازيمه التي كان يشدّها دوماً لإصلاح الفرد والمجتمع شدها هذه الليلة لاستقبال الموت. وفي تلك الأثناء كانت سحابة سوداء تسير ببطء، متأثرة بهبّة من رياح السحر، وكان سكون الليل الموحش يهيمن على جميع الخلائق من الطيور والديدان والبشر والجماد. حينها بعث القمر شعاعه في انحدار الأفق يسطع خافتاً في جبين الإمام علي عليه السلام، لكنّ القمر كان وجلاً، وقد غلب عليه اليأس وانعدم منه الأمل.

وكان القاتل الذي أجرم بحقّ البشرية قد أحسّ بطبعه الماكر، أن لاسبيل إلى قتل الإمام علي عليه السلام ولو استجمع كلّ قواه اللئيمة، إلّا إذا كان عليّ عليه السلام قد نشر لواء الشهود في حضرة الإله، وفقد كل قواه في مقام عظمة الربوبية.

نعم، فلقد استقبلته الكعبة المشرّفة في أوّل يوم بترحيب، وكانت الساعات الأخيرة لحياته قد انتهت في محلّ عبودية الله حين هشّم السيف مفرقه في ذلك المحراب وهو في لقاء مع الله. وكانت حياته عليه السلام قد قضاها بين هذين المعبدين، سواء في ساحات الحرب أم السياسة أم العبادة، أم على كرسي الزعامة، أم في أحياء اليتامى والبائسين والعاجزين وكانت بأجمعها عبادة لله تعالى.

وقد بدا من فراش الموت الذي أُعدّ لعلي عليه السلام أنّه تحوّل إلى مدرسة

متقدمة لمعرفة الموت والحياة، بالنسبة لعائديه.

وليس يعني هذا أنّ زائريه لم يشهدوا حادث موت أبداً. فقد شهد الحضور بطبيعة الحال موت الأقرباء والغرباء، سواء في ساحات الحروب أم على فراش الموت. فلم يكن مشهد الموت المخيف بعيداً عنهم، ولكنّهم رغم ذلك لم يشهدوا إنساناً يموت بهذا الشكل الهادئ والمطمئنّ. فقد كان بحراً لاحدود له من الحكمة والشجاعة والتقوى والعدل، في مقابل تلك الجراحات الدامية والقاتلة.

لقد لاحظ من جاء لعيادته جبلاً شامخاً، غاله سيف عدوّ الإنسانية المسموم، فأصفرّ كما تصفرُّ أوراق الخريف. شاهدوا ملامح مصفرّة وشفاها ذابلةً وحزينة لم تنطق منذ أن أطلّت على عالم الوجود، إلّا بالصلاح والسعادة الخالدة.

يقول مَن عاده في ذلك اليوم كما جاء في نهج البلاغة ثاني أهمّ الكتب الإنسانية والذي لم تقرأه البشرية قراءة حقيقية: إنّ علياًعليه السلام كان يوصي بوصايا وهو على فراش الموت، منها: وصيّته في القرآن، وتوحيد الله تعالى، ونظم الأُمور، واصلاح ذات البين، والاهتمام باليتامى...

وكان يكثر من قول:« لا إله إلّا الله» التي ما إن كان يسمعها الحاضرون حتى يهتزّ وجودهم، بل تهتزّ الكائنات لها[1].

---

(١) كان من وصيّة الإمام عليعليه السلام لأولاده :« أُوصيكما بتقوى الله ونظم أمركم ، وصلاح ذات بينكم ، فإنّي سمعت جدّكما صلى الله عليه وآله يقول : صلاح ذات البين أفضل

ويقول هؤلاء: إنّ شفاه عليٍّ عليه السلام الذابلة كان يكثر من تلك الكلمات وتتمتم بها حين أغمض صاحبها عينيه عن الدنيا وارتحل إلى عالم الخلود، وبدأ الحياة الحقيقية من جديد.

فسلامٌ عليه يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يُبعثُ حيّاً.

من عامة الصلاة والصيام... واللهَ اللهَ في الأيتام فلا تغبّوا أفواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم ... واللهَ اللهَ في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم، واللهَ اللهَ في الصلاة فإنّها عمود دينكم ...» (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد:٣ / ٧٦). [المترجم]

الفهرس